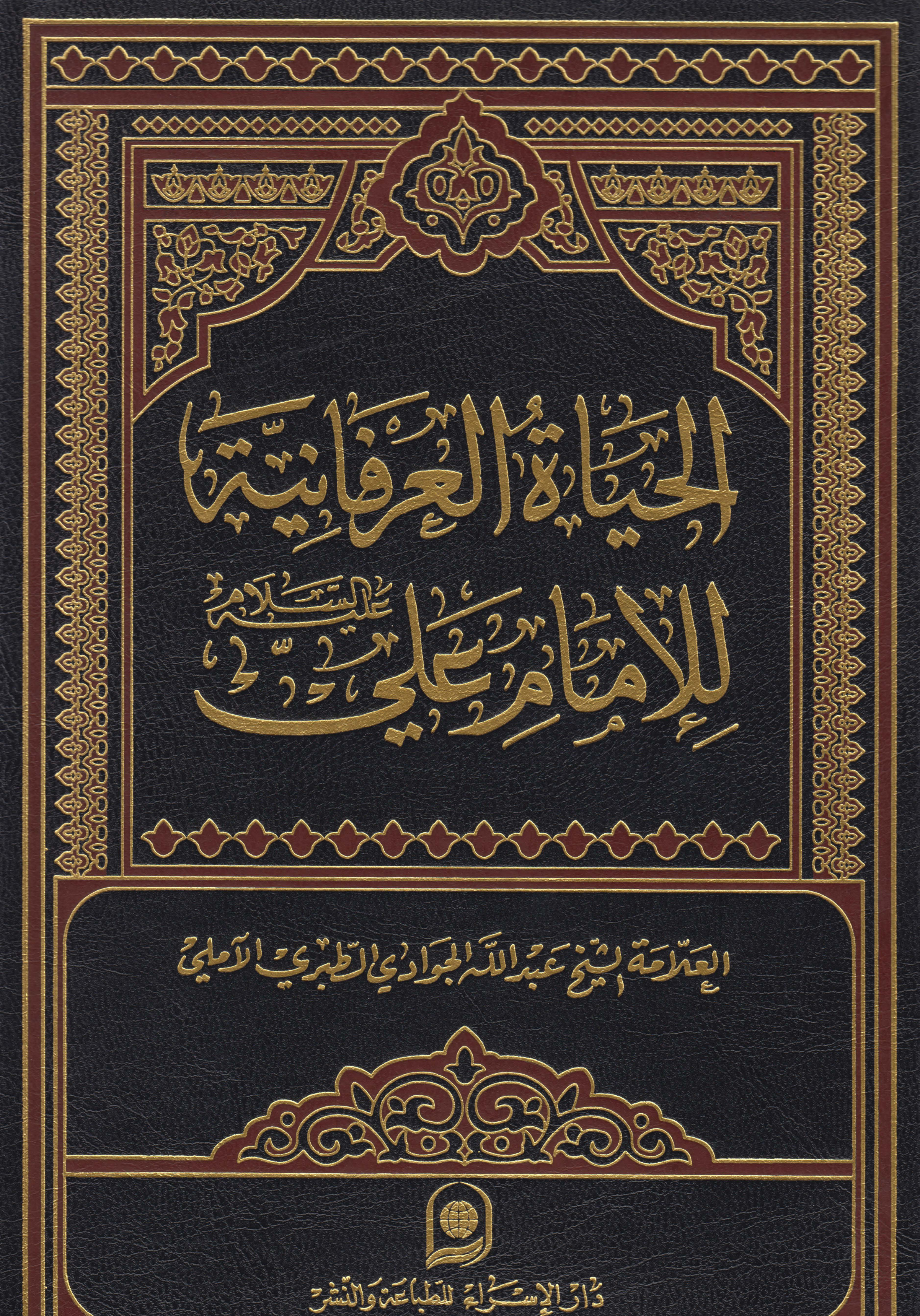

الحياة العرفانية
للإمام علي عليه السلام
العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي
دار الإسراء للطباعة والنشر


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

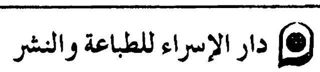

الحياة العرفانية
للإمام علي عليه السلام



العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي



●اسم الكتاب: ....الحياة العرفانية للإمام علي عليه السلام
●تأليف : ....العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الآملي
●ترجمة : .... منصف حامدي
●مراجعة وتصحيح : ....حسين صافي
●الطبعة : ....الثانية
●سنة الطبع : ....١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م بيروت



دار الإسراء للطباعة والنشر
لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش
بناية الحسنين. ط ١. تلفون : ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس الإجمالي

الفصل الثالث:

الرؤية الكونية العرفانية للإمام علي عليه السلام

الفصل الرّابع:

السيرة والسنّة العرفانية للإمام علي عليه السلام

الفصل الخامس:

الحياة العرفانية للإمام علي عليه السلام من منظار أهل البيت عليهم السلام

الفصل السادس:

الحياة العرفانية للإمام علي عليه السلام من منظار رجال العلم

كلمة النّاشر

إنّ عليّاً عليه السلام بوصفه التجلّي العالي للذّات الإلهية العليا هو فوق أن يوصف بوصف أو يُشبّه بشبيه أو نظير؛ وهذا نظير قول أمير المؤمنين عليه السلام نفسه حول معرفة ربّه عزّ وجلّ حيث قال: «لم يُطْلِع العقول على تحديد صفته ولم يَحْجُبها عن واجب معرفته».[1] دائماً واستلهاماً من أقوال الإمام عليه السلام، وبعد إظهار الخضوع والاعتراف بالعجز عن معرفته، فإنّ معرفته والتعريف به بالقدر المستطاع أمرٌ لازم.

إنّ شمس وجوده تأبى الوصف كما أنّ ظاهر وجوده يحجب باطنه. إنّ ذلك الوجود العُلوي والسماوي الذي صار أرضياً لمدّة وجيزة، لا يمكن لأيّ مكان إلاّ الكعبة أن تكون تجلّياً لوجوده، كما لا يمكن لأيّ مكان غير محراب مسجد العبادة أن يكون مسرحاً لتحمّل فادح شهادته. كان أينما يحلّ وأيّ مكان تطأه قدماه، يحقّق النّصر والظفر على الأعداء. لقد كانت بداية حياته طلوعاً لشمس الهداية ونهايتها بالشهادة أفولاً لنجم السعادة. كان يطلع كلّ يوم قبل طلوع الفجر، ليعلّم الفجر كيفية الطلوع. وكان غروب الشمس بزوغاً لمناجاته وبزوغ الشمس طليعة لجهاده.

لقد انحنت الدنيا بقامتها الطويلة أمام علي بكلّ تغنّج ودلال لكنّه كسر هامة الدنيا الطاغية بسيف التقوى. كان السيف يزهو فخراً في يده، كما أنّ نصله البرّاق كان مظهراً

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٤٩، البند ٣.

لتلك القدرة العلوية الخارقة كلّ المظاهر الكاملة وأكمل المظاهر الإنسانية، التي أدهشت الملائک والأفلاک هي رهينة الحياة العرفانية والحياة الشهودية العلوية لقد وله العالم بالتعلّق بروحه، كما خسئ كلّ قبيح منه، فيما شمخ به كلّ حسن. كان له نظر ثاقب حتىٰ لأولئك الذين لم يكن لهم اطّلاع علىٰ فكره بحيث ألجأهم إلىٰ ضرورة الإحاطة بأعمق الحقائق وسويداء الوقائع المرتبطة بمشهد ومرآىٰ شخصيته الشامخة. لقد انكشف حجاب الدّنيا وغطاء الآخرة أمام عينيه التي تنظر بعين الحقيقة. لقد أضاءت الشمس واستنار القمر بنظره الثاقب والبيّن. لقد أحال نظره الباطني فتاواه علىٰ ظاهره إذ لا أثر لحجاب الظاهر أمام نظرته الثّاقبة.

يسعىٰ هذا الأثر والذي هو عبارة عن رؤية شهودية للحياة العرفانية لإمام العرفاء وقبلة أهل الشهود إلىٰ سبر أغوار عمق وجود علي عليه السلام والذي هو مظهر واقعي ومناسب للتمسّك بتلابيب هيكل وجوده عبر كلمات علي ذات الطابع الحكيم والكلامي مما يفيض الحياة علىٰ حكمته وكلامه ويرسّخ ويثبّت مكانة هذا الرجل العظيم. فإذا وقف الحكماء مندهشين أمام الكلام الحكيم لعلي عليه السلام، وإذا استفاد المتكلّمون من كلام علي لبيان أقوىٰ العقائد رسوخاً فإنّ كل ذلك رهين تلك الحياة العرفانية.

وإذا وقف الجميع من فقهاء وعلماء وكرماء وشجعان وخواصّ أهل السلوك والسابحين في بحر الشهود ومعلّمي الأخلاق و... وقفوا متحيرين أمام خصائص هذه الشخصية العظيمة فذلک لامتلاك هذا الإمام الهمام حياة شهودية وعرفانية متميّزة.

هذا الأثر القيّم الذي جاد به قلم سماحة الأستاذ، آية الله جوادي آملي وفق نظرة عرفانية وطبق قلم برهاني، إنّما يمثّل رؤية ثاقبة إلىٰ مختلف أبعاد شخصية ذلك الإمام الهمام من زاوية الحياة العرفانية، وقد جاء في ستّة فصول.



هذا، ويجدر التذكير بأنّ البعض من الذين يقتربون من الشمس العلوية، إمّا أنهم لا يقوون علىٰ النظر إليها وإمّا لا يقدرون علىٰ وصف ذلك الحبيب. إذ إنّ عين البصيرة واللسان الذاكر المرتبطان بروح صافية وقلب طاهر هما وحدهما من يقدر علىٰ نيل شهود هذه الشمس والحديث عنها وهي هبة عظيمة وهبها الله لسماحة الأستاذ (دام ظلّه).

يتألّف هذا الكتاب من ستّة فصول هي كالتالي:

الفصل الأوّل: اشتمل علىٰ المواضيع التالية: الحياة والعلم؛ تبيين الحياة وارتباط ذلك بالفكر وبالدوافع البشرية، تقسيم العلم إلىٰ حصولي وحضوري وتحقّق الخطأ في العلم الحصولي، ميزان قياس المعلومات الحسّية وتقييم مراتب المعرفة.

الفصل الثاني: اشتمل علىٰ البحوث التالية: الفرق بين العرفان والكلام والحكمة؛ تميّز العرفان عن سائر العلوم بلحاظ المنهج، مكانة الحياة العرفانية ومقارنة ذلك بالحياة الحكيمة، الدور الأداتي للبرهان بالنسبة للعرفان وقصور العقل عند تقييم المعارف.

الفصل الثالث: الرؤية الكونية العرفانية للإمام علي عليه السلام؛ أثبت في هذا الفصل اعتماداً علىٰ الآيات القرآنية مع الاستعانة بسنّة المعصومين عليهم السلام أنّ الرؤية الكونية لدىٰ علي عليه السلام هي رؤية كونية عرفانية أي شهودية وحضورية وليست رؤية كونية حصولية كالتي لدىٰ الحكماء أو المتكلّمين.

الفصل الرّابع: السيرة والسنّة العرفانية لعلي عليه السلام؛ في هذا الفصل، وارتكازاً علىٰ شهودية الرؤية الكونية للإمام علي عليه السلام، تمّ إثبات شهودية سيرة وسنّة الإمام علي عليه السلام في جميع الشؤون من قبيل الدعاوىٰ والعبادات والأدعية والدعوة والتولّي والتبرّي.

الفصل الخامس: الحياة العرفانية لعلي عليه السلام من منظور أهل البيت عليهم السلام؛ أهل بيت العصمة والطّهارة هم أفضل من يبيّن البعد الشهودي لحياة علي عليه السلام. ومن هذا المنطلق، يتمّ إثبات وتحليل الحياة العرفانية لعلي عليه السلام بالاستعانة بكلام المعصومين عليهم السلام.

الفصل السّادس: الحياة العرفانية من منظور العلماء؛ يتمّ في هذا الفصل تحليل أقوال بعض العلماء من قبيل الشيخ الكليني وصدر المتألّهين الشيرازي وابن سينا والجاحظ البصري وأحمد بن حنبل والخليل بن أحمد الفراهيدي وابن أبي الحديد ضمن ترجمة علي عليه السلام.

آملين أن يتقبّل الله هذا العمل في السنة التي تفضّل سماحة السيد القائد آية الله الخامنئي (دام ظلّه) بتزيينها باسم مولى المتّقين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ويجعله مقبولاً لدى ذلك الظلّ الحقيقي لحضرة الحقّ جلّ وعلا والذي هو سلطان الدّين والدنيا، كما ندعو لسماحة الأستاذ المؤلّف بطول العمر والمزيد من بركات العلم ولجميع من يخدم مسير مولى الموحّدين دوام نيل العنايات القدسية.

كما لا يسعنا في الختام إلا أن نشكر الأخ الكريم والفاضل سماحة حجة الإسلام الشيخ علي اسلامي الذي سهر على مراجعة هذا الأثر، حشره الله مع مولاه الحقيقي.

مؤسسة اسراء

مدخل:

رغم أنّ بنان الكاتبين وبيان المتكلّمين فيما يخصّ سلطان البيان الذي قال عن نفسه «ينحدر عنّي السيل ولا يرقي إليّ الطير»[1] أبكم وألكن، إلاّ أنّ طلب المدد من السيرة السّخية لصاحب لواء «سلوني قبل أن تفقدوني»[2] يجعل هذا الأمر ممكناً بحيث يمكن الحصول على جملة من الثمار من شجرة فتوّة وكرامة ذلك الوليّ العظيم بعنوان هديّة مختصرة يقع تقديمها إلى ساحته العليا والولوية المقدّسة. وبما أنّ مطايا هذا الشخص العظيم تحمل عطاياه كما أنّ طول هذا السير من البدء إلى المنتهى ليس سوى ثمرة لسنّته الكريمة، فإنّ هذا الأثر لن يكون سطوراً من تأليف الكاتب بقدر بما يكون مرآة تعكس جمال وجلال هذا الإنسان الكامل الذي يعدّ من بين الأمّة الإسلامية مظهراً تامّاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3] وأحد أتباع النبي طبق الآية الكبرى ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[4]؛ إذ إنّ العبد الكامل يكون مظهراً تاماً لكلّ ما هو لله بالذات ويكون آية إلهية بالعرض. كما أنّ ما يكون لله بالأصالة يتحقّق بالتّبع في عبد الله المحض بوصفه خليفة الله بناء على ذلك، يمكن الحديث عن الحياة العرفانية العلوية والكتابة حول

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٣، البند١ .

٢ . نفس المصدر، الخطبة ١٨٩، البند ٥.

٣ . سورة الشورى، الآية ١١.

٤ . سورة الإخلاص، الآية ٤.

عيشه الشهودي وذلك توسّلاً باللطف العلوي الخاص الذي يمثّل آية خاصّة لعناية الله سبحانه.

هذا، ولا تقتصر صعوبة موضوع البحث على تعسّر الكلام حول شخص علي عليه السلام، بل تتعدّى ذلك إلى جميع العناصر المحورية للبحث أي "شخصية أمير المؤمنين الحقوقية" من جهة و"هويّة أصل الحياة" من جهة ثانية و"حقيقة العرفان" من جهة ثالثة والتي تمثّل في حدّ ذاتها قمّة هرم الأبحاث الوجودية والمعرفية.

إنّ ما يجعل دائرة البحث تنتقل من المستوى "البسيط" إلى "الوسيط" انتهاء إلى المستوى "الوجيز" بحيث تضيق دائرة البحث فلا تقع في محذور التشتّت والتكثّر بل تكون منسجمة ومتّحدة وبالنهاية يقع جمع كمّ هائل من المعلومات تحت عنوان واحد وهو عنوان الإنسان الكامل المتجسّد في شخص علي بن أبي طالب عليه السلام الآية الإلهية الكبرى. وكما لا يخفى، فإنّ الله تعالى بسيط الحقيقة. كما إنّ صفات بسيط الحقيقة تكون مصداقاً عين هويّته فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون هناك حالة من التكثّر بين الأوصاف من جهة وبين الصفات وبين ذات الموصوف من جهة أخرى؛ تماماً مثلما قال علي بن أبي طالب عليه السلام في وصفه الله تعالى: "وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه"[1]؛ أي أنّ رأس هرم المعرفة الخالصة للموحّد الأصيل هي نفي أيّة صفة زائدة عن الذات الإلهية والقول بأنّ جميع الأوصاف الكمالية للذّات الإلهية المقدسة هي عين ذاته تعالى. كما أنّ خليفة الله الكامل من هذه الجهة، كذلك يكون بسيطاً ومنزّهاً عن تركّب وتشتّت المظهر الإلهي التامّ كما تكون صفاته الكمالية عين هويته.

لكن، لا يخفى أنّ الاختلاف الجوهري بين الخالق وبين المخلوق باق على حاله من دون أن ينثلم أو ينخرم؛ باعتبار أنّ الله تعالى هو واجب الوجود وأنّ صفاته أزلية كما أنّ عينية هذه الصفات الكمالية مع ذاته تعالى هي سرمدية. إلاّ أنّ الخليفة الكامل ممكن

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١، البند٤.

الوجود وأوصافه أيضاً مثل ذاته ممكنة كما أنّ عينية هذه الصّفات مع ذات الخليفة هي من قبيل الوصف والموصوف ضمن منطقة الإمكان الفقري الذي تكون ميزته هي الإحتياج الوجودي.

وبعد الأخذ بعين الاعتبار لهذا الأمر، فإنّه لا يرد أيّ محذور على عينية الذات والصفة في إطار الإمكان الفقري؛ نظراً إلى أنّ جميع أركانه تتكوّن من فقر وجودي وربط محض. وبناء على ذلك، يكفي أن نجمع المباحث الثلاثة التالية:

شخصية علي بن أبي طالب

معنى الحياة

معنى العرفان

في بحث جامع واحد؛ باعتبار أنّ شخصية أي فرد تمثّل حياته، كما أنّ درجة حياة هذا الشخص تقترن بمستوى معرفته، فإنّ إطلالة قصيرة على العرفان من منظور علي بن أبي طالب تكفي للإحاطة بحقيقة العرفان. علماً وأنّ مقصودنا هو تبيين الحياة العرفانية لعلي عليه السلام من خلال الاستعانة بدرر كلام هذا الإمام الهمام. بناء على ذلك، ينبغي إجمالاً البحث ضمن بعض الفصول وإبراز الآراء في إطارها كالتالي:

معنى الحياة والعلم الحصولي والحضوري.

تمايز العرفان عن سائر العلوم العقلية؛ مثل الحكمة والكلام.

الرؤية الكونية العلوية ذات سنخية عرفانية، وليست من سنخ الحكمة أو الكلام.

الحياة العلمية والعملية حياة عرفانية لا إنّها حياة المتكلّمين أو العرفاء.

تعابير النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام حول أمير المؤمنين تتناسب مع الحياة العرفانية لا مع حياة المتكلّمين أو الحكماء.

كلام الآخرين يكون محدوداً بحدود معرفتهم بأمير المؤمنين، وهو كذلك من هذا السنخ.

* * *

الفصل الأوّل:

الحياة والعلم

علاقة الحياة بالفكر وبالدافع

الحياة هي صورة خاصّة للوجود وهي مبدأ ظهور العلم والقدرة وعامل لإيجاد الإنسجام بين "الفكر العلمي" و"الدّوافع العملية" بشكل يجعل الفكر العلمي محيطاً ومشرفاً على الميل العملي وتحت هداية الفكر العلمي فيظهر في صورة سعي عيني.

فكلّما قويت الحياة استوجب ذلك تفتّق الفكر العلمي وتقوية الدّافع العملي. وكلّما قوي الفكر والدّافع نتج عن ذلك كمالاً للحياة واشتداداً لها. هذا، وعلى الرغم من أنّه يمكن انطلاقاً من قوّة أحدهما استكشاف قوّة العنصر الآخر، إلاّ أنّ المسير العميق والعريق في طريق الاستدلال يحيلنا على أنّ الإحاطة بالسبب أي الحياة، يوصل إلى الإحاطة بالمسبّب أي الفكر والدّافع. وفي المقابل، فإنّ الطريق السهل والسّمح للإحاطة بالمسبّب أي الفكر والدّافع، يفضي إلى السبب أي الحياة؛ إذ إنّه من الصّعب الإحاطة بحقيقة الحياة وكذلك من الصعب الإحاطة بحقيقة حياة شخص معيّن، إلاّ أنّه يمكن بنحو ما التعرّف على الدّرجة الوجودية لحياة ذلك الشخص، والحديث عن كيفية عيشه إثر تحليل علمه وعمله؛ باعتبار أنّ الدّافع العملي يتبلور تحت إشراف

الفكر العلمي، كما أنّ سيره نحو القمّة أو نحو الحضيض يكون رهين صعود أو هبوط الفكر العلمي. كما أنّ "العزم العملي" يتحقّق على ضوء "الجزم العلمي" ويتمّ موازنة العمل طبقاً لوزن العلم في ميزان الحق والباطل والصّدق والكذب والحسن والقبح. ومن هذه الجهة، فإنّ تخصيص هذا البحث لتحليل الفكر العلمي والعملي والإنصراف عن الحديث عن مدار الدافع العملي يكون أقرب إلى النظام الصناعي والمنطقي.

تقسيم العلم إلى حصولي وحضوري

يمكن تقسيم الفكر العلمي من عدّة جهات؛ ومن ضمن هذه الجهات، تقسيم العلم بلحاظ المعلوم؛ إذ يكون المعلوم إمّا وجوداً وإمّا مفهوماً بالمعنى العامّ الشامل للماهية أيضاً؛ فإن كان المعلوم وجوداً بحيث يتعلّق العلم بالوجود، فإنّ هذا العلم يسمّى علماً "شهودياً" و"حضورياً"؛ إذ، على أساس أصالة الوجود، تتعلق عينية المتن بهويته فلا يمكن أبداً أن ينتقل الوجود إلى الذّهن، وإلاّ استلزم عن ذلك انقلاب الذّات إلى معنى الهوية، كما أنّ انقلاب الذّات، سواء أكان الانقلاب بمعنى "الماهية" أم بمعنى "الهوية"، يستلزم اجتماع النقيضين وهو أمر محال.

بناءً على ذلك، لا يتحقّق العلم بالوجود إلاّ عبر حضور العالم في محضر المعلوم وعبر الشهود العيني والحضوري للمعلوم، غير أنّه لا يمكن بحال أن يحضر المعلوم لدى العالم وإلاّ فإنّ المعلوم العيني ينقلب إلى مفهوم ذهني وما هذا سوى الانقلاب المستحيل.

أمّا لو كان المعلوم مفهوماً بالمعنى الأعمّ، فإنّ هذا العلم يكون "حصولياً" و "صورياً"؛ أي تحصل صورة للمعلوم لدى العالم فيطّلع العالم على الخارج بواسطة الصورة الذهنية. وعلى هذا الأساس، يقسّم العلم إلى علم من دون واسطة وإلى علم



بالواسطة؛ إذ لا تكون في العلم الحضوري أيّة واسطة بين العالم والمعلوم، في حين أنّ في العلم الحصولي، تتوسّط الصورة الذهنية بين العالم وبين المعلوم والتي يتمكّن العالم بواسطتها من إدراك الموجود العيني. ضمن العلم الحصولي، ما يحضر لدى العالم من دون واسطة، يطلق عليه تسمية "المعلوم بالذات" وما يحصل لديه بالواسطة يطلق عليه تسمية "المعلوم بالعرض" هذا، ويمكن القول بأنّ علم النفس بالمفهوم الذهني هو حضوري ويتحقّق من دون واسطة، وإن كان علمها بما يقع في خارج الذهن هو علم حصولي.

وعلى هذا الأساس، يتّضح معنى رجوع جميع العلوم إلى العلم الحضوري؛ إذ إنّ المفهوم الذّهني وإن كان بلحاظ الحكاية عن الموجود العيني والخارجي، هو علم حصولي، إلاّ أنّه بلحاظ حضور ذات المفهوم الذهني في محضر النّفس ومشهد الذّهن فإنّه يكون علماً حضورياً وشهودياً، ومع ذلك، فإنّ هذا النحو من العلم الشهودي ليس هو مرادنا في هذا البحث، بل إنّ منظورنا من الفكر الحضوري ضمن هذا البحث، إنّما هو العلم الحضوري المطروح في العرفان، وما هو سوى شهود متن الواقع والحضور في ساحة العين من دون توسّط أيّ مفهوم أو ماهية؛ من قبيل شهود الرّوح وحضور شؤون النّفس العلمية والعملية لنفسها من دون أن يحول أيّ حائل بين العالم وبين المعلوم العيني. هذا، ويمكن للنّفس أن تنتزع جملة من المفاهيم إثر مشاهدتها لشؤونها العلمية والعملية فيحصل لها مجدّداً العلم بهذه الشؤون عبر المفاهيم، إلاّ أنّ هذا العلم المتحقّق للنفس هو علم حصولي بينما يكون ذلك العلم المتحقّق من دون حجاب المفهوم علماً حضورياً. بناء على ما تقدّم ذكره، يمكن تصوير وترسيم قسمي العلم أي العلم الحضوري والحصولي طبق لحاظ النفس وشؤونها العلمية والعملية أو بلحاظ خارج الذهن والأشياء والأشخاص العينية.

إلاّ أنّ الطريق الأصيل لشهود الخارج وحضور العين ليس سوىٰ تقوية شهود النّفس وحضور الرّوح. فكلّما كانت النّفس أقوىٰ وأقدر علىٰ معرفة نفسها ومعرفة مبدئها ومنتهاها وإحاطتها بالعلاقة الوجودية بين أوّل العالم وآخره، فإنّ شهودها للأعيان الخارجية سوف يكون أقوىٰ. ومن هذا المنطلق، يمكن الكشف عن قدرة الحياة وشدّتها.

وقوع الخطأ والبطلان في العلم الحصولي

بما أنّ الإدراك ضمن العلم الحصولي يتحقّق عبر واسطة بين العالم وبين المعلوم، وما هذه الواسطة سوىٰ المفهوم الذي هو مظهر للواقع، فإنّ وقوع الصّواب أو الخطأ والحقّ أو الباطل والصّدق أو الكذب يكون بمعنىٰ انطباق الحاكي والمحكي أو عدم انطباقهما. إلاّ أنّه فيما يخصّ العلم الشهودي، وباعتبار عدم وجود أيّة واسطة بين الشّاهد والمشهود، فإنّ معنىٰ الصّواب والحقّ والصّدق يكون بمعنىٰ الثّبات والاستمرار والإتقان العيني لا بمعنىٰ الإنطباق؛ إذ لا مجال أبداً لحصول الخطأ والباطل والكذب؛ نظراً إلىٰ أنّه لا معنىٰ لأنّ يقاس شيء معيّن مع نفسه أوّلاً ثمّ يسلب الشيء عن نفسه ثانياً. وعلىٰ هذا الأساس، لا مجال لوقوع الخطأ وأمثاله في العلم الحضوري.

نعم، هذا الأمر يختصّ بالمورد الذي يكون فيه لنفس الإنسان نظرة شهودية حال اتصالها بالمثال المنفصل أو بالعقل المنفصل أو عند إطلالة خاصة لها علىٰ متن موجود مادي خارج إطار إدراكها الشهودي له، غير اتصالها بالمثال المتّصل حيث يحتمل أن يكون شهودها خطأ وكشفها كذباً وحضورها غياباً عن الواقع.

الإدراك الحضوري للرّوح وتبيينه الحصولي

ينقسم النّاس بلحاظ "السير البدني" وحركتهم الطبيعية إلىٰ قسمين:



يكون البعض أقوياء وذوي قدرة لا بأس بها، فيتميّزون بالقيام بالسير والحركة كما يختصّون بقيادة الآخرين، فيدفعونهم إلى السير وإلى الحركة حتى يسيروا خلف قائدهم ومحرّكهم. في المقابل، هناك بعض آخر يكون ضعيفاً وعاجزاً عن الحركة. وعلى هذا الأساس، لا تكون هذه الفئة قادرة على قيادة غيرها، بل تكون هي بنفسها عاجزة عن الحركة فضلاً عن تحريك غيرها. بل هي تتحرّك حين تكون تحت قيادة غيرها.

وبلحاظ "السير الرّوحي" كذلك والحركة فوق الطبيعية للنّاس تنقسم بدورها إلى قسمين: يكون البعض بلحاظ معرفة النّفس أقوياء وذوي قدرة فائقة، فيحيطون علماً بأنفسهم كما يسعون إلى معرفة هوية غيرهم. لقد أقيمت براهين عدّة على أصل وجود الرّوح وتجرّدها واشتمال الرّوح على الشؤون العلمية والعملية و... كما إنّ هؤلاء الذين يتوفّرون على مشاهدة أنفسهم في مجال وجودهم ويدركون أنفسهم بالعلم الحضوري يمكنهم كذلك بكلّ اقتدار أن يبيّنوا ذلك للقسم الثّاني أي الضّعفاء في هذا المجال ممّن لا يتوفّرون على هذه القدرة،حيث يكونون ضعفاء في معرفة النّفس، وعاجزين عن السير الرّوحي؛ أي أنّ هذا القسم الثّاني يدرك وجود الرّوح وتجرّدها واشتمالها على شؤون النّظر والعمل و... إدراكاً اجمالياً يجعلهم غافلين عن الإدراك التفصيلي بحيث يدركونه بالتفصيل عبر العلم الحصولي.

هذا الفريق الذّي يدرك نفسه بواسطة الآخرين، يحيط علماً بأسرار عالم الوجود في شكل علم يحصل عن طريق المفهوم الحصولي. أمّا الفريق الأوّل ذي القدرة الهائلة على معرفة النّفس، مثلما يحيطون علماً بهويتهم الشخصية، فإنّهم كذلك يدركون أسرار الوجود الخفية عبر المصداق الشّهودي. وبما إنّ العلم والإدراك هما العنصران المحوريان للحياة، فإنّ من يدرك هوية نفسه عبر تعليم الآخرين له، عليه أن يعلم أنّ أصل حياته العلمية رهين إحياء الآخرين لها كما أنّ أصل يقظته وانتباهه متوقّف على ايقاظ وتنبيه الآخرين.

ميزان تقييم المعلوم الحسّي

رغم أنّ البرهان العقلي لا يرتقي إلىٰ مستوىٰ الشهود الوجداني، باعتبار أنّ ما يأتي إلىٰ الذّهن ضمن البرهان ليس سوىٰ ما هو من سنخ المفهوم بالمعنىٰ الأعمّ، ولا يأتي إلىٰ الذّهن بأي حال من الأحوال ما يكون متن ذاته العينية الخارجية، فلا يمكن إدراكه وفق العلم الحصولي، وهو ما يبرز هشاشة هذا العلم، خصوصاً حين نقارنه مع العلم الحضوري. لكن، حين نقارن بين البرهان العقلي الذي هو نحوٌ من العلم الحصولي وبين العلم الحاصل من الإحساس الخارجي ومن مشاهدات الحواسّ المادّية، ندرك أنّ البرهان العقلي هو أفضل ميزان للحدّ من أخطاء الحواسّ؛ مثلما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حول خطأ الحواسّ ورجحان البرهان العقلي علىٰ المشهود الحسّي حين قال: «ليست الرؤيّة كالمعاينة مع الأبصار. فقد تَكذِبُ العيونُ أهلَها ولايغشّ العقل من استنصحه»[١]؛ أي أنّ التروّي والتعقّل والاستدلال العقلي ليس من سنخ الرؤية الحسّية والإبصار؛ إذ تكذب العين في إعطاء صورة مبصرة إلىٰ صاحبها، لكنّ العقل البرهاني لا يخون صاحبه أبداً عند إقامة دليل ناصح وبرهان خالص.

طبعاً، المقصود ممّا ذُكر أعلاه هو العقل الكامل البرهاني؛ وإلاّ في غير هذه الحالة، فإنّ العقل العادي تصدر منه أخطاء كثيرة، كما إنّ ما يطرح تحت عنوان خطأ الباصرة وسائر الحواسّ هو في الواقع من أخطاء العقل العادي الذي يقع تحت تأثير آفات الوهم والخيال. أمّا نسبة هذه الأخطاء إلىٰ العقل العادي لا إلىٰ الحواسّ، فهو علىٰ اعتبار أنّه علىٰ سبيل المثال، ترىٰ العين العادية نجوم السّماء أنّها ذات حجم صغير،

---

١ . نهج البلاغة، الحكمة ٢٨١.



فيصدر الحكم بأنّ النجم جرم صغير ثم يُعلم بعد ذلك بأنّه كبير، فيحصل الجزم بخطأ الحكم السّابق، والذّي نتج عن ابتلاء العقل العادّي بالوهم؛ إذ إنّ هذا العقل غير البالغ قد تغافل عن قيود الموضوع والمحمول، ورأىٰ الموضوع المقيّد علىٰ أنّه مطلق، فحكم عليه كذلك. مثلاً عوض أن يقول: "النجم وعلىٰ بعد مسافة بعيدة تقدّر بملايين الكيلومترات، يُرىٰ في حجم صغير بمقدار كذائي أو بمقدار كذا"، فإنّه قد ألغىٰ جميع القيود وحكم عليه من دون ذلك كالتالي: "هذا النجم في حدّ ذاته هو بحجم كذا".

مراتب المعرفة

إنّ ما يحصل عن طريق الإحساس السّمعي والبصري وأمثال ذلك، هو صرف ترتّب المحمول علىٰ الموضوع، ولا يمكن أبداً إثبات ضرورة الترتّب؛ أي لا يمكن إثبات أنّ الموضوع الوحيد الذي يترتّب علىٰ هذا المحمول الخاص إنّما هو هذا الموضوع لا غير، إلىٰ حدّ عدم إمكان افتراض تصوّر المحمول محمولاً علىٰ موضوع آخر غير هذا الموضوع.

وبناء علىٰ ذلك، وبقطع النظر عن كون المعرفة الحسّية لا تتعلّق إلاّ بالمحسوسات المادّية فلا تتعلّق بالموجود المجرّد ولا تقدر علىٰ الحكم عليه لا بالسلب ولا بالإيجاب، فإنّ المعرفة الحسّية تعجز كذلك عن إثبات بعض الأمور المتعلّقة بالمحسوسات؛ من قبيل إثبات "الضرورة" و "التلازم الحتمي بين الموضوع وبين المحمول" و"انحصار المحمول في الموضوع المفروض" بنحو لا يظهر المحمول المذكور في غير الموضوع المفروض مطلقاً.

بناء علىٰ ذلك، ومن وجهة نظر معرفية، تكون درجة "المعرفة الحسّية" أضعف مراحل المعرفة. رغم أنّ هناك أفراداً أو أصنافاً من المعرفة الحسّية تكون أقوىٰ من

غيرها من الأفراد أو الأصناف، ومن هذا المنطلق يقال: " ليس الخبر كالمعاينة"[١] ومتى كان السماع مثل المشاهدة؟ أمّا "المعرفة العقلية" فهي أعلى وأفضل من المعرفة الحسّية وتتعلّق هذه المعرفة العقلية بالحكمة والكلام وسائر العلوم الاستدلالية. لكنّ المرحلة الأعلى من ذلك هي "المعرفة القلبية" التي يتمّ تناولها في العرفان فيما نجد على قمّة الهرم المعرفي "المعرفة الوحيانية" والتي وإن كانت من سنخ العلم الشهودي والمعرفة الحضورية، لها مكانة سامية، لأنها مصونة من آفات الخلط بين المثال المتّصل والمنفصل، ومضار الإلتقاط لدى العقل الجزئي والكلّي، ومن غبار تأثير ابليس وايحاءات المغالطات، وغمام السهو والنسيان وسائر الآفات المعرفية. وعليه، تكون المعرفة الوحيانية مقياساً ومعياراً لتقييم سائر أنحاء وأنواع المعرفة، كما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام يتوفّر على هذا المقام المعرفي العالي، ويحيط علماً ومعرفة بهذا العالم، مما يساعده هذا الاقتدار المعرفي على نيل مقام الإمامة والقيادة، باعتباره محيط بأسرار ورموز العلم والمعرفة بالعالم.

* * *

١ . من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٧٨، ح٥٧٨٨.

الفصل الثاني:

الفرق بين العرفان وبين الكلام والحكمة

أهل العلم وآل المعلوم

للعرفان، مثل سائر العلوم، موضوع ومسائل ومبادئ ومنهج. كما يختلف العرفان عن سائر العلوم العقلية من قبيل الحكمة والكلام ضمن عدّة أبعاد.

ما نودّ أن نتناوله بالبحث هنا، هو خصوص افتراق العرفان عن العلوم الأخرىٰ من جهة المنهج والأسلوب؛ إذ إنّ كلّ علم من العلوم الاستدلالية الأخرىٰ مثل الحكمة والكلام، وفي عين كونها متمايزة عن بعضها، إلاّ أنّ لها جهة اشتراك، وهي الاستعانة بالعلم الحصولي والتوسّل بالمفهوم ووضع الثقة في الوجود الذهني والاستناد إلىٰ البرهان العقلي أو النّقلي، إلاّ أنّ العرفان لا يرتكز سوىٰ علىٰ العلم الحضوري.

وعلىٰ هذا الأساس، يستعين العرفان بالعلم الشّهودي ويستند عليه، وإن حصل أحياناً بعد الإثبات الشهودي والإحراز الحضوري، أن يتمّ الحديث عن المطلب المقصود عبر البرهان العقلي أو الدليل النقلي المعتبر، فإنّ المقصود من ذلك ليس سوىٰ تأييد وتقوية هذا المطلب، وتحقيق الاستئناس به وإثبات أصل المطلب لا غير.

هذا، ولا يمكن الوصول إلى الواقع وإلى متن الخارج عبر الاستدلال العقلي أو النّقلي؛ إذ يوجد فرق عميق بين الوجود الذهني وبين العلم، كما إنّ مسألة العلم تفترق تماماً عن مسألة الوجود الذهني المعقّدة، غير أنّ لها وجوداً في ضمن دائرة النفس وإن كانت عبارة عن حكاية للواقع وإراءة للخارج وللعين، لكنها لا يمكن أن تكون عين الواقع. وحتى عنوان "الواقع" و"الخارج" المرتسمين في ذهن الحكيم أو المتكلّم والذّين يرى الخارج من خلالها، حين يحلّلها بكلّ دقّة يتعيّن له بأنّ عنوان "الواقع" وعنوان "الخارج" كليهما يعني الواقع والخارج وفق "الحمل الأوّلي"، إلاّ أنّ هذين العنوانين بلحاظ "الحمل الشائع" هما موجود ذهني لا إنّه واقعي وخارجي. وبناء عليه، يكون دوماً ارتباط المفهوم مع المصداق لدى الحكيم والمتكلّم من وراء الحجاب كما يرتبطان بالعين من خلف الحجاب الذهني، فلا يمكنهما قط أن يرتبطا بالمصداق والموجود العيني من دون حجاب. وعليه، يمكن القول بأنّ الحكيم والمتكلّم مشتغلان على الدّوام بطلب المعلوم، إلاّ أنّ غرضهم هو العلم؛ إذ وفق أصالة الوجود، تكون حقيقة كلّ شيء وجوده، كما أنّ "العينية" للمتن هي هوية الوجود فلا يمكن بأي شكل أن تكون حقيقة الوجود أمراً ذهنياً. وبناء على ذلك، يكون غرض الحكيم والمتكلّم هو العلم لا المعلوم، لكنّ العارف يحصر مطلوبه في المعلوم ويناله بقدر سعته الوجودية.

يكون المعلوم لدى أهل الاستدلال مثل الغزال البرّي الذي لا يمكن قطّ صيده بفخّ المفهوم والصّورة الذهنية، والحكيم والمتكلّم مثل صيّاد لا يتمّكن قطّ من اصطياد الغزال العيني. غير أنّ رائحة المشيمة ومسك الختان يكفيان لأهل الاستدلال لتحصيل روح السّكينة كما أنّ أنسب تعبير يصدق على أهل الاستدلال هو ذلك التعبير الدّارج والرائج وهو أنّ هؤلاء هم "أهل العلم" وليسوا "أهل المعلوم" باعتبار أنّهم بصدد تحصيل العلم لا بصدد اصطياد المعلوم، كما أنّهم يسعون إلى تقوية الذّهن،

لا أنّهم في سبيل نيل العين. كما أنّ أنسب تعبير يصدق على أهل العرفان هو النشيد العذب وهو "من عبر العلم إلى العين وتجاوز الأذن إلى الحضن". هذا، وإنّ تغاير العلم مع المعلوم لا يتنافى مع اتحاد العلم والعالم والمعلوم؛ نظراً إلى أنّ الموجود العيني يكون بالأساس خارجاً عن دائرة هذا الاتحاد المذكور، كما أنّ الحقيقة الخارجية منفصلة تماماً عن دائرة الاتحاد المذكور وتمام العناصر المذكورة المحورية لهذا الإتحاد ليست سوى الوجود النوري الذي يقذف في الرّوح من دون أن يرافقه مفهوم أو ماهية، كما أنّ تفصيل معنى الاتحاد والبرهان عليه من البحوث الخارجة عن الغرض من تدوين هذه الرسالة الموجزة.

التّمايز بين العلم والمعلوم

يكون التّمايز بين العلم وبين المعلوم أحياناً كبيراً ويكون أحياناً أخرى قليلاً. فيما يخصّ المعلوم العيني الذي تكون له ماهية، على الرغم من أنّ وجوده العيني، والذي هو وجود أصيل، لا يأتي إلى الذّهن، إلاّ أنّ عدم استعصاء ماهيّته على الذّهن يجعلها تأخذ طريقها إلى النّفس. ومن هذا المنطلق، يمكن إدراك الماهية الخارجية التي يمكن لها أن ترتسم في الذّهن، وإن لم يترتّب على ذلك أيّ أثر؛ باعتبار أنّ الأثر إنّما يصدر عن الوجود العيني، والذي لا يأتي إلى الذّهن نظراً إلى أنّ ما يأتي إلى الذّهن إنما هو الماهية الاعتبارية التي لا يترتّب عليها أيّ أثر.

أمّا فيما يخصّ المعلوم العيني المنزّه عن الماهية والمبرأ من الجنس والفصل، فلا يكفي أن لا تأتي هويته إلى الذهن، بل إنّ الماهية التي تحكي عن ذلك هي من باب السالبة بانتفاء الموضوع التي لا مجال لمجيئها إلى الذّهن. بل لا يأتي إلى الذهن إلاّ المفهوم الذي يمثّل هذا المعلوم، ولا يكون من عدّة جهات مصداقاً عينياً ولا موجوداً خارجياً؛ إذ، أوّلاً، يكون المفهوم كلّياً فيما يكون الموجود العيني من قبيل الواجب تعالى شخصاً،

ولا يخفىٰ أنّ الكلّي غير الشخص والفرد. ثانياً، يكون المفهوم غائباً بينما يكون الموجود العيني مثل الواجب تعالىٰ حاضراً دوماً، والغائب غير الحاضر. ثالثاً: يكون المفهوم الذهني مسبوقاً بالجهل وملحوقاً بالسهو والنسيان؛ أي أنّه محكوم بالتغيّر بينما يكون الموجود العيني من قبيل الله تعالىٰ منزّهاً عن أيّ نوع من أنواع التغيّر كما أنّ المتغيّر هو غير ما لا يطرأ عليه التغيّر...

وبناء علىٰ ذلك، فيما يخصّ الموارد الحسّاسة والمهمّة المتعارفة ضمن المعارف التوحيدية، فإنّ ما يستخلصه أهل الاستدلال الفلسفي والكلامي هو غير ما يصل إليه أهل العرفان إثر الشهود الوجداني. وإن كان لا يمكن لأي شاهد محدود أن يحقّق اكتناهاً شهودياً للمشهود اللامحدود. وعلىٰ هذا الأساس، نرىٰ دوماً أنّ معرفة العرفاء تقترن باعترافهم بالعجز وشهودهم ملازماً للغياب، بل إنّ مجال قصورهم وغيابهم هو بحد لا يتناهىٰ، كما أنّ دائرة مشهودهم ومعروفهم متناه؛ إذ إنّ الشاهد المحدود يشاهد المشهود اللا محدود وفق شهوده المحدود لا وفق لا محدودية المشهود.

الجهاد الأكبر وهجرة العارف الكبرى

بعد أن اتّضح موقع قياس العقل الاستدلالي مقارنة بقلب الشّاهد، فإنّ هوية الإنسان المشتاق إلىٰ الشهود بقصد العبور من المفهوم الصّادق إلىٰ عين المصداق، والمرور من الذّهن إلىٰ الخارج، وأخيراً الهجرة من الحصول إلىٰ الحضور، كلّ ذلك يحتاج إلىٰ جهاد أكبر؛ إذ إنّه إلىٰ حدّ الآن لم ينجز إلاّ الجهاد الأصغر أو الأوسط؛ أي أنّ محاربة العدو الذي يهجم من الخارج علىٰ الوطن المألوف لينهب خيراته هو عبارة عن "جهاد أصغر"، بينما تعدّ محاربة العقل والنّفس الأمّارة بالسوء والميّالة إلىٰ الشهوات والغضب عبارة عن "جهاد أوسط" فيما تعدّ محاربة القلب والعقل والحرب علىٰ الحضور والحصول ودفاع شهود العين في مقابل فهم الذّهن "جهاداً أكبر" ترافقه هجرة كبرىٰ.

يعدّ "فن الأخلاق" جهاداً أوسطاً في طريق تربية المجاهد المحارب حتىٰ يتمكّن من الخلاص من كمين الهوىٰ والميول ليصل إلىٰ بر أمان القسط والعدل. أمّا "فنّ العرفان" فهو جهاد أكبر بالنسبة لتربية المقاوم حتىٰ يتحرّر من مرصاد العلم الحصولي ومن رصد البرهان العقلي، وينجو من دائرة المفهوم الضيقة والمظلمة ومضيقة الذّهن، وصولاً إلىٰ أفق أرحب ويتذوّق طعم الشهود، ويتنّعم باستنشاق رائحة المصداق العيني.

إنّ الرسالة التي يريد المجاهد في ميدان الجهاد الأكبر أن يوصلها إلىٰ أسرىٰ الدهليز الضّيّق للمفهوم الذّهني والاستدلال العقلي مفادها أنّ العقل لا يدرك سوىٰ الأوّليات وليس أكثر من ذلك، أمّا المسائل النظرية والمعقّدة فيجب مشاهدتها عبر بصيرة القلب، لا فهمها بالدليل العقلي. ومن ينظر بعين قلبه فإنّه يرىٰ الحقائق، أمّا الأعمىٰ الذي يتلمّس الطريق بعصا الاستدلال وبالاستعانة بالبرهان هو مثل الأعمىٰ الذي يستعين بيديه ورجليه قصد ادراك شيء ما ليفهم بعض خواصّه من دون أن يحيط علماً بأعماق هذا الشيء[1]، كما أنّ الأعمىٰ لو أراد أن يكون بصيراً فإنّه بنظرة واحدة يتمكن من إدراك ما حوله من دون الحاجة إلىٰ عصاه من جهة ولا إلىٰ حاسة اللمس من جهة ثانية. هذا، ولا يخفىٰ أنّ مسافة كبيرة تفصل عن غلبة الجهاد الأكبر، ويحتاج الأمر إلىٰ صبر سنوات عديدة قبل استشمام رائحة يوسف من جهة، وذهاب البصر وظهور العمىٰ الظاهري من جهة أخرىٰ، حتىٰ تبصر بصيرة القلب وتشمّ شامّة القلب وتجري عين الباطن بماء الشهود الكوثري. علىٰ أمل تلك المرحلة.

ينقل السيد حيدر الآملي حديثاً عن رسول الله ﷺ هو ما يلي: «خلق الله تعالىٰ العقلَ لأداء حق العبوديّة، لا لإدراك حقّ الربوبية»[2]؛ أي أنّ وظيفة العقل هو القيام

---

١ . زبدة الحقائق، عين القضاة الهمداني، ص٢٧ ـ ٢٨، مع التحرير والتلخيص.

٢ . جامع الأسرار، ص٤٨٥.

بعبودية الله وليس معرفة الله وإدراك الربوبية. فلا يمكن معرفة الله بالدليل العقلي. حسب رأي السيد الآملي يكون الذين يودّون معرفة الله عبر الحكمة والكلام مشمولين بالآية الكريمة التالية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.[1]

وفي ضمن كثير من انتقاداته لا يرىٰ السيد الآملي أنّ الحكيم هو مثل المتكلّم فقط بل إنّ الإشراقي والمشّائي يكونان مشمولين بنفور العارف الذي يراهما من قبيل العميان الذين أمسكوا الحاهم من الحيرة وصكّوا أسنانهم من النّدم، وكانوا مصداقاً لخطبة أمير المؤمنين علي عليه السلام في نقده للمتظاهرين بالعلم وهم ليسوا أهله.[2]

الوظيفة الأداتية للبرهان بالنسبة للعرفان

علىٰ الرغم من أنّ العلم الحضوري أقوىٰ من العلم الحصولي، وكذلك الإدراك الشهودي أفضل من الإدراك المفهومي، إلاّ أنّ نيل ذلك ليس بالأمر الهيّن؛ رغم أنّ بعض السالكين الواصلين قد اعتبروا بأن نيله أمر سهل، وأنّ طريقه أسهل من الطرق الملتوية والمعوجّة للحكمة والكلام.

حين يكون العارف في حال شهود الحقائق وفق عناية الله وهبته، وما دام في حال الحضور لا يكون لديه أي شك وتردّد حول ثبات واستقرار وعينية ذلك الشهود؛ مثلما أنّه لا يملك إمكانية تعليم الآخرين أو نقل شهوده إلىٰ الآخرين، لكن، يمكن حصول الشكّ بالنسبة له حال الرجوع من الحضور إلىٰ الحصول، والعودة من الشهود إلىٰ الغياب بحيث يشكّ هل إنّ مشهوده يقع في منطقة مثاله المتّصل أو في منطقة المثال المنفصل؟ ولدفع هذا الاحتمال، فإنّه يحتاج إلىٰ البرهان القطعي المعقول وكذلك إن احتاج إلىٰ نقل ما ناله بالشهود عبر تعليمه إلىٰ الآخرين فإنّه يحتاج إلىٰ ثقافة وآلية

---

١ . سورة الشعراء، آيه ٢٢٥.

٢ . جامع الأسرار، ص٤٧٢ ـ ٤٩٠.

الخطاب الذي يتيسّر مع الاستدلال العقلي.

وبناء على ذلك، تكون البراهين العقلية بالنسبة للعرفان بمثابة أدوات المنطق بالنسبة للحكمة والكلام والتي تفرّق بها بين الصحيح عن السقيم، وكذلك تنقل بها المعارف العقلية إلى الآخرين، وما لم يتحوّل المشهود العرفاني إلى معقول فلسفي فلا يكون مقبولاً لديهم، إلاّ إذا كان العارف ذا بصيرة نافذة مثل ذوي القلوب التي تقدر على الولوج في قلوب المحيطين بهم، فيقذفون في قلوبهم شهوداً مشابهاً لمشهودهم، وفي هذه الحالة، يشهدون ما يشهده الشّاهد.

قصور العقل عن تقييم المعارف

ضمن اعترافهم بصحّة البرهان العقلي وصلاحيّته لتقييم المعارف في الجملة، قال بعض أهل المعرفة في هذا المجال:

العقل ميزان صحيح لتقييم بعض الأمور فحسب لا كلّها، بحيث لا يتمكّن من إدراك وتقييم الحقائق الغيبية من قبيل الأوصاف الأزلية والنبوّة والقيامة؛ فالعقل هو تماماً مثل ميزان الذّهب الذي وإن أمكن به وزن الذهب إلاّ أنّه لا يمكن أن توزن به الأوزان الثقيلة كالجبال ونحوها.

هذا، ولا يخفى أنّ القول برجحان الشهود على الحصول، وترجيح الوجدان القلبي على البرهان العقلي، لا يُقصد به الدعوة إلى نبذ البراهين العقلية ودفع العاقل المفكّر أعمّ من الحكيم ومن المتكلّم إلى التخلّي عن العقل باختياره؛ إذ إنّ الاستغناء الاختياري عن العقل ذلك ليس بإمكان أحد أن يقوم به حتى يتمّ حثّه عليه أو فرضه عليه، أو أن يقدم عليه من نفسه، بل يُقصد من ذلك الترك الاضطراري للعقل واستغناؤه القهري عنه عند طلوع شمس الشهود القلبي.[1] وفي هذه الحالة، يأفل نجم

---

١ . زبدة الحقائق، عين القضاة الهمداني، ص٩٨، مع التحرير و التغيير.

العقل؛ أي أنّ شعاع الشمس يطغىٰ علىٰ ما سواه باعتبار كون هذا الطلوع هبة إلهية، لا إنّه يتحقّق إثر التحصيل والاكتساب بل هو علىٰ أساس "علىٰ قدر أهل العزم أيها القلب تأتي العزائم".

المعلوم بالذات والمعلوم بالعرض

إنّ إطلاق المعلوم بالعرض علىٰ الموجود الأصيل والواقعي، أو إطلاق المعلوم بالذات علىٰ الموجود الظلّي والاعتباري في العلم الحصولي، إنّما هو بمنزلة انتعال الحذاء بالمقلوب والذي لا يمكن بأي حال أن يلحق الضرر بالموجود العيني الأصيل، ولا أن يضيف شيئاً إلىٰ درجة الموجود الظلّي. كما إنّ هذا الإطلاق الذي يكشف عن ضعف اطّلاع العالم لا يمكن بأي نحو أن يضعف الموجود العيني؛ باعتبار أنّ عود ما بالذات وما بالعرض ضمن هذا التقسيم إنما يرجع إلىٰ مدىٰ إدراك العالم للمفهوم الظلّي والاعتباري يكون أكثر من الموجود الأصيل والواقعي.

وعليه، فإنّ المعلوم بالعرض هو في الحقيقة موجود بالذات، كما إنّ المعلوم بالذات موجود بالعرض، وهذا القصور والفتور قد سبّب أن يكون "النعل الظلّي" معلوماً أكثر من "الياقوت الأصلي". لكن في العلم الحضوري يكون الياقوت الأصيل معلوماً بالذات بينما يكون النعل الظلّي والذي هو ترجمة حصولية لذلك الموجود الأصيل والواقعي أو الشهود الحضوري، يكون معلوماً بالذات؛ إذ إنّ المفهوم الذي يُنتزع من الشهود يكون حاضراً بالذات في دائرة الذّهن؛ مثلما أنّ الروح الواعية للعالم حاضرة بالذات في إطار العلم الشهودي فتشهد عين الموجود الأصيل، بل يمكن القول بأنّ العلم بالعرض لا يمكن أن يتواجد من أصله ضمن العلم الحضوري؛ إذ، مادام المفهوم غير منتزع من المشهود فلا وجود إلاّ لعلم عيني واحد لا أكثر، ويكون مرافقاً للمعلوم بالذات وحتىٰ المفهوم الظلّي المنتزَع منه يكون كذلك معلوماً بالذات.

الهدف السامي للعلم الحضوري

لا ينحصر الفرق بين العلم الحضوري وبين العلم الحصولي في حدود الإدراك وكيفيته، بل يتعدّىٰ ذلك إلىٰ كون العلم الحضوري يهدف إلىٰ تحقيق أغراض عديدة نذكر بعضها في سبيل تشويق الناس إلىٰ تحصيل العلم الحضوري وترجيحه علىٰ العلم الحصولي وبالنتيجة، يتمّ تقديم العرفان علىٰ الحكمة وعلىٰ الكلام باعتبار أنّ أيّ إخبار علمي أو ميل عملي يصدر من صاحب العلم الحصولي من قبيل الحكماء أو المتكلّمين، إنّما يكون ناظراً إلىٰ أنّ ما بالذات هو الموجود الذّهني، وأنّ المفهوم الظلّي وبالعرض يكون ناظراً إلىٰ الموجود العيني والمصداق الأصيل؛ إذ إنّ جميع فعاليات الرّوح تكون مسبوقة بإدراكها، وأنّ نفس الإنسان إنّما تؤمن بشيء وتتّصل به وتتعلّق به ولا تتوانىٰ عن حمايته وحفظه بكلّ نفس ونفيس ليكون لها معلوماً حقيقياً وبالذات، إلاّ أنّ ما هو معلوم بالعرض لا يمكن بأيّ حال أن يكون بالذات لهذه الأمور المذكورة.

وبناء علىٰ ذلك، يكون إيمان الحكيم والمتكلّم بالمعلوم بالذّات أي المفهوم الذّهني وإيمانهما بالمعلوم بالعرض أي الموجود الأصيل الخارجي بالعرض دوماً إيماناً بالغيب، لا أكثر من ذلك، إلاّ أنّ إيمان العارف بالموجود الأصيل الخارجي علىٰ أنّه بالذات ومن سنخ الإيمان بالشهادة الذي هو أكمل من الإيمان بالغيب، لا من صنف الإيمان بالغيب وما جاء في وصف المؤمنين والمفلحين الذين يؤمنون بالغيب[1] هو بيان لأقلّ مراتب الإيمان وإلاّ فإنّ مرتبة الإيمان بالشهادة هي مرتبة أعلىٰ منها وسيأتي بيان ذلك في الفصول اللاحقة.

خلاصة الكلام، تدور الحياة الحكيمة والحياة الكلامية بالأصالة مدار الصّورة الذّهنية وبالذات في محور المفهوم بالمعنىٰ الأعمّ، وكلّما كان الحكيم أو المتكلّم أشد استئناساً بالصّورة الذّهنية والمفهوم، كان أشدّ بعداً عن الموجود الأصيل العيني

---

١ . سورة البقرة، آيه ٣.

والمصداق الخارجي؛ مثل طفل يرىٰ صورة شجرة مثمرة علىٰ صفحة المرآة ثم يتعلّق بهذه الصّورة وتحصل له العُلقة القلبية بها فلا يفكّر إلاّ بها بحيث كلّما كان هذا الفكر والميل إلىٰ هذه الصورة أكبر، كان بعده عن الشجرة الواقعية والثمرة الحقيقية أكبر. وفي هذا الحال، سوف يكون العلم (الحصولي) حجاباً كبيراً أو أكبر. هذا، علىٰ الرغم من ذكرهم معاني أخرىٰ كثيرة حول هذا التعبير.

ملاحظة: قال بعض أهل المعرفة:

كلّ علم يتمّ تحصيله في الدّنيا يسمّىٰ "علم الأبدان" وكلّ علم يتحقّق بعد الموت يسمّىٰ "علم الأديان" ... بحيث يكون نور المصباح عبارة عن رؤية علم الأبدان أمّا الإحتراق في النّور عبارة عن علم الأديان[1].

إنّ أولئك الذين حقّقوا الموت الإختياري فماثلوا الموتىٰ بالموت الحقيقي فشهدوا حقائق البرزخ وآثارها شهوداً حقيقياً، كانوا محيطين بعلم الأديان.

مكانة الحياة الحكيمة

ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار هذه النقطة الأساسية ونولي العناية اللازمة بها والتي مفادها أنّه لو وقع نقد العقل البرهاني أو أشير إلىٰ تضعيفه ضمن المباحث السابقة أو الأبحاث اللاحقة أو وُصف بعدم فائدته، فإنّ جميع هذه الأمور ناظرة إلىٰ مقارنة البرهان العقلي قياساً بالشهود العرفاني ومن قبيل مقارنة "عصا الاستدلال" في مقابل "عطاء الشهود" وإلاّ فإنّ البرهان العقلي مقارنة بالإدراك الحسّي والخيالي والوهمي له المكانة العليا والرائدة والقائدة لها جميعاً.

إنّ الحياة الحكيمة التي تتمحور حول الفكر البرهاني، وترتكز علىٰ الدليل المتقن والعقلي، تتفوّق علىٰ سائر أقسام الحياة التي ليس لها سوىٰ جملة من المعطيات الحسّية

---

١ . فيه ما فيه، ص٢٢٨.

والآراء الوهمية. يتّضح عند تحليل العلوم الاستدلالية، إنّه على الرغم من أنّ الفكر الرّياضي قد اختصّ بتسمية ملك العلوم عند بعض أهل الاختصاص، إلاّ أنّ تحليلاً معرفياً للعلوم يوضح لنا بأنّ اليقين البرهاني ضمن العلوم التجريبية هو نادر التحقّق، كما أنّ الفكر الحسّي والتجربي الذي يفضي إلى الطمأنينة والظنّ قد أخذ مكان الجزم العلمي.

أمّا العلوم الرّياضية وإن كانت تفضي إلى اليقين ولديها كمّاً هائلاً من المسائل التي تفضي إلى الجزم، لكنّها من جهة تحتاج إلى الحكمة ضمن مبادئها الأساسية مثل علم الوجود ونظرية المعرفة ومعرفة الموضوع وأمثال ذلك، ومن جهة ثانية فإنّ دائرة تأثيرها محدودة؛ إذ إنّ الموجود العيني والخارجي المنزّه عن أيّ قيد والمبرّء من حيثية المقدار لا تطبّق عليه القواعد الرياضية، وحتى لو استعين أحياناً ببعض القواعد الرياضية لحلّ بعض المعارف ما وراء الطبيعية وتمّت الاستفادة من مبادئ الفنّ الرياضي لتحرير وتحليل المسائل التجريدية الصّرفة، فإنّ ذلك يحصل حتماً بعد ترقيق المطلب المنزّه عن الكمّية والمقدار وبعد تشبيه المعقول بالمحسوس. وإلاّ، في غير هذه الحالة، فإنّ الموجود المجرّد المحض الذي يكون مبرّءاً من أي تحديد زماني أو مكاني، ومن الطول والعرض، والعمق ونظائر ذلك، لا يمكن أبداً أن يقع في ضمن مسائل الحساب أو الهندسة. بل لا يمكن صيده إلاّ بالبرهان العقلي. ولهذا السبب، تتعيّن سلطنة الفلسفة الإلهية ويُعلم كونها ملكة العلوم مقارنة بسائر العلوم الاستدلالية من قبيل العلوم الطبيعية والرياضية والمنطقية والأخلاقية. ومع ذلك، يبقى هذا العلم مقارنة بالعلم الشهودي له نقص وفتور من باب: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»[١].

اختلاف العرفان عن التجربة الدينية

رغم إننا وضّحنا في مطاوي البحث مقصودنا من العرفان الذي يقابل الحكمة

---

١. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٠٥.

والكلام، لكن حتىٰ نتّقي أي احتمال وقوع خلط بينه وبين بعض الحالات الوجدانية والمعطيات الباطنية والتي يُطلق عليها أحياناً تسمية "التجربة الدينية" ارتأينا من الضروري أن نؤكّد علىٰ أنّ العرفان ليس سوىٰ شهود الواقع ومعاينة الحقيقة العينية لا بالأدوات الحسية ولا بالآلات ووسائل المثال المتّصل؛ إذ إنّ ما يتمّ مشاهدته ضمن المثال المتّصل بنفس الشاهد هو من اختلاقات روحه واختلاقات النفس والتي لا يوجد أيّ دليل علىٰ صحّة وسلامة ذلك من دسّ ووضع وتحريف الرّوح؛ ومن نظائر ذلك "أضغاث الأحلام" والتي تختلقها النّفس حال النوم وتعيشها، ثم بعد الاستيقاظ تستذكر النفس تلك الأضغاث. هذا النحو من المشاهدات النفسانية ضمن "الحالات المنامية" يحصل لبعض المرتاضين أو السالكين في بداية الطريق أو السذّج كما إنّه لا يتيسّر لأيّ كان أن يميّز ذلك عن سائر مشهودات المثال المنفصل.

هناك دور ريادي للبرهان العقلي العميق في تحديد صحّة أو سقم حالات أهل المعرفة؛ إذ إنّهم بعد الخَلع من الخلسة ورفع الحالات المنامية وأمثال ذلك، يتأمّل هؤلاء فيما يخصّ ميزان اعتبار مشهوداتهم؛ إذ يحصل أحياناً أن يرتفع إشكال التردّد بعد موازنة هذه الحالات مع ميزان الوحي والنقل المعتبر وأحياناً أخرىٰ إثر مقارنتها مع مقياس البرهان العقلي انتهاء إلىٰ علاج معضل الشكّ.

ولهذا السبب قيل: وزان الفلسفة بالنسبة للعرفان كوزان المنطق بالنسبة للفلسفة، أي أنّ براهين الحكمة المتقنة قصد تقييم الحق والباطل لحالات أهل المعرفة هي بمثابة القواعد المنطقية لتقييم صحّة أو سقم أفكار أهل الحكمة.

حينئذ، يتّضح أنّ المقصود من العرفان في هذا الكتاب، والقول بأنّ قيمته أعلىٰ من حرمة الكلام وأفضل من قيمة الحكمة إنما هو شهود الواقع ومعاينة الحقيقة الخارجية المنزّهة عن أيّ اختلاق حسّي أو نسج من الخيال أو دسّ من النفس ضمن منطقة المثال المتّصل.

* * *

الفصل الثالث:

الرؤية الكونية العرفانية للإمام علي عليه السلام

العلم الشهودي بالكتاب التدويني والتكويني الإلهي

الآن، وبعد أن أحطنا علماً بأنحاء المعرفة العقلانية للكون وبأنّها من قبيل الإدراك الحصولي للحكيم وللمتكلّم بينما تكون الرؤية الكونية الشهودية مثل الإدراك الحضوري العرفاني كما عُلم رجحان الإدراك الشهودي على العلم الحصولي، ينبغي الإشارة إلى الرؤية الكونية عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام انطلاقاً من القرآن الكريم ومن سنّة المعصومين عليهم السلام حتّى تُعلم حياة وسنخ سيرة وسنّة هذا الإمام الهمام.

القرآن الكريم هو أهمّ كتاب سماوي يصدّق سائر الكتب السماوية السّابقة ويهيمن عليها ويصحححها ويقويها ويحميها: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1]، ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[2] وهو حبل الله المتين الذي يكون أحد طرفيه عربيّ مبين ويكون بيد الناس

---

١ . سورة البقرة، الآية ٩٧.

٢ . سورة المائدة، الآية٤٨.

وطرفه الآخر منزّهاً عن الوضع، وعن اللغة وعن الاعتبار ومبرّأ عن المفهوم وعن المعنىٰ الذهني ويكون لدىٰ الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾.[1]

هذه الصحيفة المهيمنة رغم تمام بطونها وتأويلها، فإنّ جميع ظهوراتها وتنزيلاتها مشهودة لدىٰ الإنسان الكامل المتمثّل في علي بن أبي طالب عليه السلام؛ إذ ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بأنّ أحد أبرز مصاديق الآية الكريمة ﴿**قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾[2] هو أخي علي بن أبي طالب عليه السلام[3] وبما أنّ جميع معارف القرآن موجودة لدىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام بأتمّ شكل وأكمله، فإنّه يُعلم بأنّ علمه عليه السلام للمعارف القرآنية ليس هو من قبيل العلم الحصولي بل هي من سنخ العلم الحضوري والشهودي وبما أنّ القرآن كتاب الله التدويني وعالم الخارج كتاب الله التكويني بحيث يوجد انسجام كامل بين هاتين الصحيفتين، بحيث لو تمثّل القرآن في صورة الخلق التكويني فإنّه لن يكون سوىٰ هذا العالم المشهود، كما إنّ هذا العالم المشهود لو يتجلّىٰ في صورة كتاب تدويني فلن يكون سوىٰ هذا القرآن الكريم. وعليه، من يحيط علماً بالعلم الشهودي بجميع أبعاد القرآن فإنّه سوف يكون له علم حضوري بأسرار ورموز العالم التكويني أيضاً.

مشاهدة كتاب الأبرار

قسّم القرآن الكريم المتّقين والذين نالوا مقام القرب الإلهي إلىٰ "أصحاب الميمنة" و"الأبرار" و"المقرّبين"، كما اعتبر أنّ مقام "المقرّبين" هو أعلىٰ من سائر المقامات

---

١ . سورة الزخرف، الآية ٣ ـ ٤.

٢ . سورة الرعد، الآية ٤٣.

٣ . نور الثقلين، ج٢، ص٥٢٣، ح٢١١ و ٢١٧.

الأخرىٰ، وذكر أنّ إحدىٰ علامات هذه الأفضلية هو اطّلاع المقرّبين علىٰ خفايا الفجوات في خواطر الأبرار وإشرافهم علىٰ الرموز المسطورة في صحائف أعمالهم والتي تعود كلّها إلىٰ عقائد وأخلاق وأفعال الأبرار التي يكون المقرّبون شاهدين لها:

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] والظاهر أنّ الشهود المذكور في الآية هو نفسه العلم الحضوري لا الحصولي.

وعلىٰ الرغم من أنّ الآية المذكورة لم تكن صريحة في إثبات العلم الحضوري للمقرّبين لجميع عالم الخلقة، إلاّ أنّ لها القدرة علىٰ إثبات علمهم الحضوري بقسم واسع من صحيفة عقائد الناس وأخلاقهم وأعمالهم من ذوي المراتب الدنيا بالنسبة لهم بلحاظ الدرجة الوجودية وبما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو أكمل مصداق للمقرّبين لله. وعليه، فإنّه حتماً يكون مطّلعاً علىٰ باطن وظاهر أعمال جميع المجتمعات البشرية كما يشمل ذلك بلحاظ الدرجة الوجودية كلّ ما له درجة أدنىٰ من ذلك ليكون مشهوداً لعلي عليه السلام.

شهود القيامة

لقد بشّر القرآن الكريم أهل النظر بالعلم اليقيني وأصحاب البصر بتحقّقه حيث قال تعالىٰ في هذا المجال: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[2] والمقصود من رؤية الجحيم ليس هو إدراكها بدراية عبر البرهان العقلي؛ كما أنّه ليس إدراكاً روائياً عبر الدليل النقلي المعتبر؛ إذ وقع التنصيص إلىٰ أنّ شرط رؤية جهنّم هو عبر العلم اليقيني؛ أي أنّ من له علم يقيني سواء أكان هذا العلم نابعاً من

---

١ . سورة المطففين، الآيات ١٨ ـ ٢١.

٢ . سورة التكاثر، الآيات ٥ ـ ٧.

"البرهان العقلي" أم "الدليل النقلي" والقول القطعي للمعصوم، يكون واجداً لشرائط الإنتقال من الفهم إلى النظر ومن العلم إلى الكشف وأخيراً يكون قادراً على هجر العلم الحصولي إلى العلم الحضوري. كما لا يمكن قطعاً أن يكون المقصود من الرؤية الأولى هو رؤيتها بعد الموت؛ إذ في تلك المرحلة ـ يعني بعد الموت- حتى الإنسان الملحد العاصي يشاهد الجحيم ويحيط علماً بوجوده بواسطة العلم الحضوري.

بناء على ذلك، طبق إشارة القرآن الكريم إلى قدرة البعض على الرؤية الشهودية التي هي أرقى من الدراية العقلية والرواية النقلية، فلا شكّ أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو أبرز مصداق لمن لهم هذه القدرة على رؤية الجحيم. وبما أنّ جملة من الآيات الشريفة قد اقتصرت على ذكر مسألة الإنذار والأحداث المتعلّقة بجهنّم وساحة الجحيم، فإنّ هذا الاقتصار ليس له سوى الجهة التربوية والإرشادية لا أنّها من باب الحصر، بحيث يمكن القول بأنّ بعض المؤمنين الذين يكون علي بن أبي طالب عليه السلام مَثَلهم الأعلى، يتوفّرون على نعمة شهود القيامة أعمّ من الجنّة أو الجحيم، كما أنّ كلّ شيء له مرتبة وجودية أدنى من ساحة القيامة يكون مشمولاً لشهود الإنسان الكامل من قبيل علي بن أبي طالب عليه السلام.

ملاحظة: يمكن الاكتفاء بما ذكر من شواهد قرآنية، وإن كان يمكن استنباط أدلّة أخرى من القرآن الكريم تتعلّق بالعلوم الشهودية لأولياء الله الذين يكون علي بن أبي طالب أبرز مصداق لهم؛ من قبيل قوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] بحيث يكون علي بن أبي طالب عليه السلام المصداق البارز لخواص المؤمنين الذين يشهدون أعمال جميع البشر.[2]

---

١ . سورة التوبة، الآية ١٠٥.

٢ . نور الثقلين، ج٢، ص٢٦٤، ح٣٢٨ و ٣٢٩.

تسانخ النبي وعلي عليهما السلام في الشهود العرفاني

نعرض الآن ما أشار إليه رسول الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله حول علم علي الشهودي: «خُلِقْتُ أنا وعليّ من نور واحدٍ».[1] لقد ورد مراراً وتكراراً في المجاميع الروائية بهذا المضمون كون الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام قد خلقا من نور واحد؛ وبما أنّ حياة وممات كليهما متجانسان، وبما أنّ للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله رؤية كونية شهودية غير حصولية؛ وبما أنّ حياة النبي كانت حياة عرفانية لا إنّها حياة حكيم أو متكلّم، فإنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو أيضاً قد خلق من النور نفسه الذي خلق منه النبي صلى الله عليه وآله كما أنّ حياتهما ومماتهما متسانخان وأن ليس لعلي بن أبي طالب أي نصيب من النبوة والرسالة التشريعية، فإنّه يمكن القول بأنّ الرؤية الكونية لعلي بن أبي طالب حياة شهودية لا حصولية، وبالتالي تكون حياته عليه السلام حياة عرفانية لا حياة حكيم أو متكلّم؛ مثلما أنّ تحليل قوله تعالى: ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...﴾[2] أيضاً يفضي إلى استظهار تسانخ هاتين الذاتين النورانيين على مستوى الشهود العرفاني.

هذا، ويمكن ملاحظة هذا التقارن نفسه المتعلّق بنوع الشهود والحياة ضمن أحاديث أخرى؛ من قبيل ما نقل عن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله حين قال: «يا علي ما عرف اللهّ إلاّ أنَا وأنت و ما عَرَفَني إلاّ اللهّ وأنت و ما عَرَفَك إلاّ الله وأنا»[3]؛ حيث يُعلم أنّ هذا الإنسان الكامل لا تتيسّر معرفته إلاّ لله كما إنّ معرفة الله هي بحدّ لا يتيسّر للموجود الإمكاني باستثنائه هو، فيُعلم من ذلك أنّ هذا الموجود روحاً ذات مكانة رفيعة. وبطبيعة الحال، يمكن لهذه الروح الكاملة قطعاً أن تشاهد أسرار العالم في إطار

---

١ . الخصال، ص٣١، ح١٠٨.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٦١.

٣ . مختصر بصائر الدرجات، ص١٢٥؛ مناقب ابن شهر آشوب، ج٣، ص٢٦٧؛ ارشاد القلوب، ص٢٠٩.

التجرّد العقلي التامّ. وفي هذه المسألة، يكون علي بن أبي طالب عليه السلام مسانخاً للرسول صلى الله عليه وآله.

هذا، ولا يخفى أنّ تمايز الرسول صلى الله عليه وآله عن سائر الناس يبقى محفوظاً، لكنّ تعبير النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن علي بن أبي طالب عليه السلام: "عليّ مني بمنزلة الرأس للبدن"[١] هو الذي يؤشّر إلى هذه الأهمية الخاصّة.

ملاحظة: نكتفي بهذا القدر من نقل الأحاديث النبوية وإن كان يمكن للمتتبّع الماهر من خلال التعابير المتعدّدة الصادرة عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله حول المكانة الرفيعة لأمير المؤمنين، أن يحيط بكيفية الرؤية الكونية الشهودية لعلي عليه السلام بشكل كامل.

العلم الشهودي لعلي عليه السلام من لسانه

نشير هنا إلى باقة من درر كلام أمير المؤمنين عليه السلام يتحدّث فيها إمّا عن نفسه وإمّا عن جملة من المسائل العلمية حتّى يتضح من خلال ذلك طبيعة الشهود العلمي لهذا الإمام الهمام.

لكن قبل ذلك، ينبغي التنبّه إلى مسألة مهمّة مؤدّاها أنّ أي نحو من المديح والثناء الوارد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام عن نفسه فإنّه ناظر إلى تبيين شخصيته الحقوقية، أي هو بصدد بيان الولاية والخلافة الإلهية والتي هي أمانة دينية ينبغي المحافظة عليها كما أنّ حمايتها تقع ضمن جهات متعدّدة؛ مثل التبيين والتعليل والتسديد والدفاع والحماية و... فلا يكون هذا المديح من باب«تَزْكيةُ المرءِ نَفْسَه»[٢] أبداً حتى يكون من قبيل المديح المذموم. على أيّ حال، هناك موارد عديدة وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام تفيد شهوده العلمي نكتفي بذكر نبذة قليلة من باب الذكر لا الحصر:

---

١ . مناقب الخوارزمي، ص ١٤٨، ١٧٤ و....

٢ . نهج البلاغة، الرسالة ٢٨، البند ١٠.



١. القرآن النّاطق والوحي الممثل

«أنَـا القـرآن النـاطق»[1]؛ «أنـا كـلام الله النـاطق»[2]؛ «أنـا علـم الله... ولـسان الله الناطق».[3] مثلما مرّت الإشارة إليه آنفاً، للقرآن الكريم درجات متعدّدة يكون في عـدد منها منزّهاً عن حدود العبرية أو العربية أو السريانية أو الفارسية؛ إذ إنّ القرآن الكريم هو ضمن هذه المرتبة هو «عليحكيم»[4] وله إشراف شهودي عـلى سـائر المراتـب التـي تقع دون هذه المرتبة. فمن هو قـرآن نـاطق ووحـي متمثّـل سـوف يكـون لـه اطـلاع حضوري على أسرار العالم؛ يعني أنّه يكون له اطلاع على هذه الأسرار كما يكـون هـذا الإطّلاع من سنخ الحضور لا الحصول؛ مثلما هو الـشأن بالنـسبة للعلـم الإلهـي لهـذه الأسرار والذي يكون بالذات وبالأصالة. فمن هذا المنطلق، يكون علم الخليفة والعبد الصّالح الذي هو مظهر علم الله وآية الإطلاع الإلهي يكون عليه بالعرض وبالتبع.

٢. المفاخر السبعة

«لقد أُعطيت السبع التي لم يسبقني إليها أحـدٌ: علّمـتُ الأسـماء، والحكومـة بـين العباد، و تفسير الكتاب، وقسمة الحق من المغانم بين بني آدم، فما شذّ عنّي مـن العلـم شيءٌ إلاّ وقد عَلَّمنيه المبارك ولقد أُعطيت حرفـاً يفـتح ألـف حـرفٍ، ولقـد أُعطِيَـتْ زوجتي مُصحفاً فيه من العلم ما لم يسبقها إليه أحدٌ خاصة من الله و رسوله».[5]

إنّ جميع المآثر السبعة المشار إليها ضمن هذا الحديث كلّها من سـنخ العلـم كـما إنّ

---

١ . ينابيع المودة، ج١، ص٢١٤، ح٢٠.

٢ . البحار، ج٨٢، ص١٩٩.

٣ . توحيد الصدوق، ص١٦٤، ح١.

٤ . سورة الزخرف، الآية ٤.

٥ . بصائر الدرجات، ص٢٠٠، ح٢؛ البحار، ج٣٩، ص٣٤٣.

المبدأ الفاعلي لهذه التعاليم ليس سوى الله تبارك وتعالى وبما أنّ الوجود المقدّس للنبي ولعلي هما بمثابة نور واحد، فإنّ ما جاء في الكلام العلوي حين قال بأنّ علمي غير مسبوق بأي علم آخر يكون ناظراً إلى الغير، لا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. كما إنّ المقصود من "تعليم الأسماء" هو ما جاء في قصّة آدم عليه السلام؛ إذ إنّ المقصود في تلك القصّة إنّما هو المقام الآدمي المنيع والإنسان الكامل بحيث يكون آدم عليه السلام بعنوان أحد مصاديق ذلك العنوان، لا إنّه منحصر في شخصه[1]. كما أنّ ما ذكر حول فاطمة الزهراء عليها السلام هو من سنخ العلم الإلهي الخاص الذي وهبها الله إياها وببركة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد ناله الإنسان الكامل. وبما أنّ تعليم الأسماء هو بمعنى تعليم حقائق الأشياء وهو علم شهودي لا حصولي. وعليه، فإنّ علي عليه السلام قد أحاط بحقائق العالم بالعلم الحضوري. وذكر المآثر السبعة فيما بعد إنّما هو على الظّاهر من قبيل ذكر للخاص بعد العام أو ذكر للمقيّد بعد المطلق أو ذكر للجزء بعد ذكر الكلّ وأمثال ذلك؛ إذ تندرج جميع هذه المآثر تحت عنوان الأسماء الإلهية الحسنى.

٢. شهود الملكوت

«... ولقد نَظَرْتُ في الملكوت بإذن ربّي فما غاب عنّي ما كان قبلي ولا ما يأتي بعدي... »[2]؛ «سبحانك ما أعظم مانري من خلقك و ما أصغر كل عظيمةٍ في جنب قدرتك وما أهول ما نري من ملكوتك».[3] إنّ النظر في ملكوت السّماوات والأرض التي رغّب الله سبحانه وتعالى الناس عليها ضمن قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ﴾.[4] إنّما هو نظر بمعنى النّظر العقلي، لا النّظر الحسّي؛ إذ إنّ هذه

---

١ . ر.ك تسنيم، ج٣، ذيل الآية ٣٠ سورة البقرة.

٢ . امالي الشيخ الطوسي، ص٢٠٥، ح٣٥١.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة١٠٩، البند ٧.

٤ . سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

الآية تدعو الجميع إلى النّظر في الملكوت، سواء أكان المخاطب أعمى أم بصيراً؛ مثلما أنّ المنظور هو خصوص الملكوت الذي لا يرى بالنظر الحسّي. وعليه، فإنّ هذا النحو من النظّر هو قطعاً بمعنى التنظير وليس بمعنى النظر الفيزيائي. إنّ لفظ النظر يأتي أحياناً بمعنى البَصَر وأحياناً بمعنى الرؤية وأحياناً أخرى بمعنى غير ذلك. إلاّ أنّ بعض النظر يكون حتماً بمعنى البصر والرؤية. وما جاء في الكلام العلوي عليه السلام حول النظر ينتهي إلى الرؤية؛ لا إنّه منقطع عنها؛ إذ إنّ هذا النظر الخاصّ الذي يتحقّق بإذن الله سبحانه يفضي إلى حضور جميع الأشياء والأشخاص فلا يخفى شيء عنه. ومن هذا المنطلق، يقول عليه السلام حول هذا الأمر: "ليس أمر مما مضى أو مما سيأتي غائباً عني أو مستوراً"؛ أي لست محيطاً بجميع أمور العالم فحسب بل جميع ما في الكون حاضر لديّ ومشهود عندي فلا يغيب عني أيّ أمر وما ذلك إلاّ العلم الشهودي بالأشياء التي يتمتّع به الإنسان الكامل؛ وهو نظير ما ذكر الله سبحانه وتعالى في خصوص ابراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1]، حيث تشير هذه الآية الكريمة إلى رؤية ابراهيم الخليل بعناية إلهية حيث أراه الملكوت. هذا، ولهذا الشهود والرؤية آثار عديدة من بينها تحقيق وتحصيل اليقين؛ أي ذلك اليقين الثابت والمستقرّ حيث يُعرف صاحبه على أنّه مُوقن، لا أنّ اليقين قد حصل له في مقطع زمني ثم انقضى ومضى إلى حال سبيله.

وعليه، حين نجد بأنّ علي عليه السلام قد وصف نفسه بأنّه[2] «علم الله»، «قلب الله» و «لسان الله الناطق» وحين يصفه الإمام الصّادق عليه السلام بما يلي: «... وعَيْبة غَيْبِ الله وموضع سرّه»[3] فإنّ ذلك ناظر إلى أمرين أولاهما هو شمول واتّساع دائرة العلم

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٧٥.

٢ . توحيد الصدوق، ص١٦٤، ح١.

٣ . الإقبال، ج٢، ص٢٧٨.

العلوي مقارنة بما هو مقدور وميسور للموجود الإمكاني. وثانيهما كون هذا العلم شهودياً وحضورياً.

هذا، وإن كان ما نقل عن الإمام الصّادق عليه السلام مسبوقاً بكلام عن النبي صلى الله عليه وآله حول علي عليه السلام جاء فيه: «عليٌّ عَيْبَةُ علمي»[1] وبما أنّ علم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله علم إلهي فإنّ علي عليه السلام يكون وعاءاً للعلم الإلهي وهو مضمون ما جاء في حديث الإمام الصّادق عله السلام. وبما إنّ علي عليه السلام وعاء الأسرار الإلهية وفي قلبه الذي هو حرم لرموز عالم الوجود، تجمّعت بإذن الله جميع الأشياء، فإنّه بالتالي يكون مصداقاً بارزاً للإمام المبين الذي أحصىٰ الله في باطنه وعدّ جميع الأشياء؛ مثلما نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّ المقصود بالإمام المبين في قوله تعالىٰ: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[2] هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[3]. وهذا الأمر يفسّر الأمرين سابقي الذكر حول علي عليه السلام أي: اتساع دائرة العلم العلوي والبعد الشهودي لهذا العلم؛ إذ إنّ حقائق الأشياء يقع إحصاءها في متن سعته الوجودية لا مفاهيمها وصورها الذهنية.

٤. المعرفة الشهودية للمبدأ

نظراً إلىٰ أنّ أهمّ معرفة هي المعرفة التي تتعلّق بأفضل معروف وبما أنّ أفضل معروف هو الله سبحانه وتعالىٰ، فإنّ أعلىٰ معرفة إنّما هي المعرفة التي تتعلّق بالله سبحانه وتعالىٰ؛ مثلما قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «معرفة الله سبحانه أعلي

---

١ . مناقب ابن شهر آشوب، ج٢، ص٣٢.

٢ . سورة يس، آيه ١٢.

٣ . تفسير القمي، ج٢، ص٢١٢؛ ينابيع المودة، ج١، ص٢٣٠.



المعارف»[1] «من عرف الله كملت معرفته»[2] وبما أنّ أفضل سنخ للمعرفة إنّما هو المعرفة الشهودية، فإنّ ما هو أدنى من ذلك ضمن العلم الحصولي لا يعود على العالم سوى جملة من المفاهيم. ولهذا السبب، سعى علي عليه السلام إلى معرفة الله ضمن العلم الشهودي لا ضمن العلم الحصولي. قال الإمام الصّادق عليه السلام: بينما كان أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة، إذ قام إليه رجل يقال له "ذعلب" ذو لسان بليغ في الخطب، شجاع القلب فقال: يا أمير المؤمنين، هل رأيت ربّك؟ قال: ويلك يا ذعلب، ما كنت أعبد ربّاً لم أره". فقال: يا أمير المؤمنين: كيف رأيته؟ قال: ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[3]؛ أي أنّ الهوية الإلهية ليست منزّهة عن الطّبيعة فحسب حتى تأبى عن أن يتمّ الإحاطة بها بالأدوات الحسية، بل هي مبرأة عن عالم المثال وأي نحو من التمثّل. وعلى هذا الأساس، لا يمكن إدراكه بالأدوات الخيالية والمثالية، أعمّ من المثال المتّصل أو المنفصل، وفي غير هذه الحالة، يكون له مقدار ووضع ومحاذاة وإن لم يكن له مادّة باعتبار أنّ هذا الوصف محال أن يتّصف به الموجود المطلق والغني المحض، بل إنّ الطريق الوحيد للإدراك الحضوري للذات الإلهية المقدسة ليس سوى الشهود القلبي. وهذا النحو من الحضور لا يتحقّق إلا لقلب العبد المؤمن الذي تجلّى فيه بحقّ حقيقة الإيمان. ومن المعلوم أنّ حقيقة الإيمان التي هي أوّل شرط لشهود الله سبحانه لا هي أمر محسوس ولا متخيّل.

ولهذا السبب، لا يمكن إدراك حقيقة الإيمان لا بالأدوات الحسّية ولا يمكن تصويرها بالتمثّل الخيالي.

---

١. الغرر والدرر، الآمدي، ح١٦٧٤.

٢. المصدر نفسه، ح٧٩٩٩.

٣. الكافي، ج١، ص١٣٨؛ نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

إنّ معبود عارف كهذا إنّما هو مشهوده الحقيقي، أمّا من لم يصل إلى هكذا مقام منيع، فإنّ معبوده ليس سوىٰ ما هو مورد تعقّل له ومعقول له، لا مشهود له. وفي هذه الحالة، سوف تكون عبادته لمعبوده من باب عبادة الزهاد وأمثال ذلك، لا من باب العبادة العرفانية؛ إذ إنّ البرهان العقلي أو الدّليل النّقلي المتقن لا يعبر منطقة المفهوم ولا يصل إلى قمّة هرم الشهود فلا تصل يده إلى هذا الهرم الشامخ وبالضرورة سوف لن تكون الآثار المترتّبة عنه آثاراً عرفانية.

وعلىٰ أيّ حال، لقد عرف علي بن أبي طالب عليه السلام ربّه بقلب متحقّق وقد عبد مشهوده الواقعي بجميع شؤونه العبادية أعمّ من الأفكار العلمية أو الميول العملية كما رآىٰ ربّه أوضح من أيّ شيء مرئي حسّي؛ إذ إنّ الباصرة الحسّية كثيراً ما تقع في الخطأ بينما تكون البصيرة الإنسانية مبرّأة من أي وقوع في الزلل الشبهة. ومن هذا المنطلق قال: «هو اللهّ الحقّ المبين أحقّ وأبين مما ترى العيون».[١]

هناك نقطة في غاية الأهمية ينبغي أن لا نغفل عنها ومفادها أنّ الله سبحانه وتعالىٰ هو المبدأ الفاعلي والغائي لجميع ما سواه، بحيث يبدأ النظام العلّي والمعلولي بلحاظ المبدأ الفاعلي من ذاته جلّ وعلا ومن جهة المبدأ الغائي ينتهي إلى ذاته تعالىٰ. وعليه، فإنّه جلّ وعلا في قوس النزول أو الصعود وبلحاظ الأوّل أو الآخر هو دوماً علّة العلل. كما هو ثابت، فإنّ العلم بالعلّة يستلزم العلم بالمعلول مثلما قيل في هذا المجال: «ذَوَاتُ الأسباب لاتُعْرَفُ إلاّ بأسبابها»[٢]؛ أي ليس فقط يكون العلم بالسبب موجباً للعلم بالمسبّب، بل إنّ الطريق الوحيد للعلم بالمسبّب هو العلم بالسبب. وهذه القاعدة مثلما هو مطروح ومعروض في العلم الحصولي، حيث يستعان بها في صناعة

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة١٥٥، البند٢.

٢ . الأسفار، ج١، ص٢٦.

البرهان المنطقي حتى يقع فصل «برهان اللِمّ» عن «برهان الإنّ» وليُعلم تمايز هذا البرهان عن سائر البراهين، فإنّ لهذه القاعدة نصيب من الإعمال ذلك في العلم الحضوري؛ أي أنّ من كانت علّته حاضرة في مشهده ومحضره ويكون مدركاً لشهودته للعلّة فإنّ المعلول يكون حتماً حاضراً في مشهده. وإذا أرجعنا ضمن هذا المطلب، «العليّة» إلى «التشأّن» فإنّ الأمر سيأخذ صبغة عرفانية. وإذا بلغ عنوان المَصْدَر والصّادر شأن الظاهر والمَظهَر، فإنّ شهود الظاهر سوف يكون إطاراً لشهود جميع مظاهره. فمن يشهد الله الظاهر بعين الإيمان القلبي فإنّه يشهد جميع مظاهره بشعاع الرؤية العرفانية نفسها فتتجلّى له جميع أسرار ورموز الكون ويكون لها تشأّناً شهودياً لا حصولياً. وإن كانت المعرفة هي روح الحياة وأساس الإقتدار، إلاّ أنّ تأثيرها يكون بمقدار المعروف؛ فكلّما كان المعروف قوياً كانت آثاره الحياتية أكثر أثراً ولا يخفى أنّه لا نظير ولا مثل لوجود الله سبحانه وتعالى كما لا معروف كمثل الله تعالى. ولذا السبب، لا نظير ولا مثيل للحياة التوحيدية.

ومن هذا المنطلق، قال علي بن أبي طالب عليه السلام حول التوحيد: «التوحيد حياة النفس»[١].

إنّما صاحب هذه الحياة الفاضلة من يصدر منه خطاب: «سَلُوني قبل أن تفقدوني»[٢] ليوصله إلى أسماع العالم وما على جميع العقلاء في العالم إلاّ أن يستمعوا إلى هذا النداء وينصتوا له؛ إذ إنّ علياً عليه السلام مثله مثل القرآن الكريم يتكلّم إلى الناس؛ إذ إنّه هو القرآن الناطق الذي تمكّن بشهود المتكلّم من كشف حقائق الكلمات ومن ترجمتها وتفسيرها وتبيينها وتعليلها وإعطائها وجهتها الصحيحة، وهو الأمر الذي يبرز

---

١ . الغرر و الدرر، الآمدي، ح٥٤٠.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩، البند ٥.

للعيان بشكل واضح علامات إقتداره العلمي والمأخوذ من الحياة التوحيدية الثابتة وهو أمر يتجاوز الدائرة التي حدّدت لهذه الرسالة وهو خصوص الشهود العلمي والحياة العرفانية لعلي عليه السلام.

٥. المعرفة الشهودية للمعاد

باعتبار أنّ المعاد هو بمعنى العود، فإنّه يعني العود إلى قرب المبدأ، فلا يعني المعاد الرّجوع إلى الدنيا من قبيل التناسخ وغير ذلك. فمن يدرك جيّداً المبدأ الفاعلي لعالم الإمكان، لا يكون له أيّ نقص في معرفة المعاد وضرورة الرجوع إلى المبدأ. إلاّ أنّ من عرف الله عبر البرهان الحصولي، وأحاط به علماً بواسطة المفهوم العقلي، فإنّ مسألة المعاد تحصل له كذلك عن طريق البرهان الحصولي. فمن عرف الله ضمن دائرة مقام "الإحسان" أي مقام "كأنّ" لا مقام "أنّ"، فإنّ إدراكه للرجوع إلى الله سوف يكون كذلك محدوداً ضمن دائرة محور "الإحسان" أي مقام "كأنّ"، وليس أكثر من ذلك. أمّا من يكون له إحاطة شهودية تامّة بالله تعالى أي مقام "أنّ" وليس أقلّ من ذلك، فإنّ معرفته بالمعاد سوف تكون كذلك ضمن محور الشهود الكامل أي مقام "أنّ" لا مقام "كأنّ" فضلاً عن أن يكون أقلّ من ذلك أي مقام البرهان العقلي.

وبما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام بلحاظ شهود المبدأ الفاعلي أي بدأ الوجود قد وصل إلى أتمّ حدّ، فإنّ إحاطته بالمبدأ الغائي أي مصير وعاقبة الوجود أيضاً في أكمل وجه لا في حدّ "الإحسان" يعني مقام "كأنّ" فضلاً عمّا هو أقلّ من ذلك أي البرهان العقلي والمفهوم الحصولي. وإن كان الإمام الصّادق عليه السلام قد قال في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام: «... ولقد كان يعمل عمل رجلٍ كأنه ينظر إلي الجنّة والنار...»[١]، فإنّ

١ . الكافي، ج٨، ص١٦٣ و ١٧٣.

مقصوده من ذلك ليس بيان المرحلة النهائية لمنزلة أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ إنّ أعلىٰ هرم مقام شهود علي بن أبي طالب عليه السلام هو مقام "أنّ" لا مقام "كأنّ"؛ إذ إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه قد قال فيما يخصّ شهود المعاد ما يلي: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»[1]؛ أي لو كشف لعلي حجاب الرجوع والأوب إلىٰ الله وحجاب رجوع الخلق في قوس الصعود إلىٰ الخالق فلا يضاف إلىٰ يقينه أي شيء.

لبّ هذا البيان هو إرشاد إلىٰ نفي الموضوع أي الحجاب. والمقصود منه هو عدم وجود غطاء بيني وبين شهود المعاد، وحين يكشف الغطاء من أمام الآخرين لا يكون له أيّ أثر بالنسبة لي، لا إنّه يعني أنّي أنا الآن محجوب ومحكوم بالغطاء إلاّ أنّه حين يكشف هذا الغطاء عني لا يزداد يقيني.

انطلاقاً من تصريح علي عليه السلام نفسه، يمكن أن نستنبط أنّ الغرض منه هو الإشارة إلىٰ علمه عليه السلام الحضوري بالمعاد بقطع النظر عن طريق التلازم بين المبدأ وبين منتهىٰ الوجود وعن الإنسجام بين شهود المبدأ الفاعلي والمبدأ الغائي. وبناء علىٰ ذلك، يكون إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام بالقيامة هو من سنخ الإيمان بالشهادة لا من سنخ الإيمان بالغيب؛ إذ إنّ المعاد لدىٰ علي عليه السلام ليس من قبيل الأمور البرهانية لدىٰ الحكيم أو المتكلّم ولا هي من قبيل الأمور النقلية لدىٰ المحدّث لتكون من شاكلة الإيمان بالغيب، بل هي من سنخ الإيمان بولايته وإمامته والتي هي من قبيل الإيمان بالشهادة. ومثلما أشير إليه فيما يخصّ كون إيمانه عليه السلام بالمبدأ الفاعلي للكون هو من سنخ الإيمان بالشهادة لا إيماناً بالغيب، فإنّ إيمانه عليه السلام بالمبدأ الغائي كذلك هو من قبيل الإيمان بالشهادة بينما الإيمان بالغيب هو أدنىٰ حدّ للتكليف وإلاّ فإنّ المطلوب هو الإيمان بأصول وبفروع الدّين، سواء أكانت هذه المعارف مشهودة أم معقولة كما إنّ الإيمان بها إمّا من سنخ الإيمان بالشهادة وإمّا من سنخ الإيمان بالغيب.

---

١ . البحار، ج٤٠، ص١٥٣.

٦. المعرفة الشهودية للرسالة النبوية

نظراً إلى إنّ الوحي والنبوّة ورسالة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هي مظاهر للهداية وللحكمة الإلهية وبلحاظ الحكمة والكلام، تُعدّ هداية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فعلاً خاصّاً لله وهي من منظر العرفان ظهور خاصّ إلهي، باعتبار أنّ من يشهد الله تعالى بعين القلب فإنّه سوف يشاهد أفعاله ومظاهره. وبناء على ذلك، فإنّ علي بن أبي طالب عليه السلام ضمن جوابه عن سؤال "ذعلب" قد مجّد سنّته الراسخة وسيرته الباقية كالتالي: "ما كنت أعبد ربّاً لم أره" فهو حتماً يشاهد الإيحاء الإلهي وإرساله وإنزاله للصحيفة الربوبية؛ إذ إنّ الأصل الحاكم على المسبّبات إنما هو أن رؤيتها محكومة برؤية أسبابها: «ذَوات الأسباب لا تُعْرَف إلا بأسبابها».[1] وطبقاً لهذا الأصل، والذي تمّ الاستناد عليه سابقاً، فإنّ علي بن أبي طالب عليه السلام يكون قطعاً قد رأى شعاع الوحي الإلهي.

وبقطع النظر عن هذا الدّليل العام، هناك دليل خاصّ آخر حول مسألة الوجود نشير إليها بصورة مجملة. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «ولقد كان يجاور في كلّ سنةٍ بحِراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيتٌ واحد يومئذٍ في الأسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة و أنا ثالثهما، أرَى نورَ الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة، ولقد سمعت رنّةَ الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله . فقلت: يا رسول الله ماهذه الرنّة. فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنّك تسمع ما أسمع و تري ما أري، إلاّ أنّك لست بنبيّ ولكنّك لوزير و إنّك لعلي خيرٍ»[2]

يمكن أن نستنبط من هذا الكلام العلوي عدّة نقاط نشير إلى بعضها تباعاً:

---

١ . الأسفار، ج١، ص٢٦.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، بند ١١٩.

أوّلاً: الوحي والرسالة موجودان نورانيان ولهما نور معنوي يمكن رؤيته بعين الروح.

ثانياً: مثلما أنّ النبوة نورانية وقابلة للإبصار، فإنّ لها عطراً يمكن استشمامه.

ثالثاً: كما أنّ قلب ولي الله بصير، فهو كذلك شميم؛ أي أنّ القلب الولوي مبصر وشامّ. ولهذا السبب، يرىٰ هذا القلب ويشمّ كذلك.

رابعاً: مضافاً إلىٰ قدرته علىٰ الإبصار والاستشمام، لقب الخليفة الإلهي أيضاً القدرة علىٰ السماع؛ أي أنّه سميع كذلك، حيث يسمع تضجّر ابليس.

خامساً: يتوفّر قلب الإنسان النائل والذي هو مظهر تامّ لبسيط الحقيقة علىٰ جميع الكمالات الإمكانية من دون تركّب أو تكثّر.

سادساً: إنّ مشاهدة نور الوحي والرسالة واستشمام رائحة النبوة والإستماع إلىٰ تضجّر الشيطان هي من خصوصيات المقام الشامخ للولاية الإلهية ولا تختصّ فقط بصاحب الرسالة التشريعية، أي النبي.

سابعاً: علي بن أبي طالب عليه السلام والذي هو واجد لجميع الكمالات الوجودية المذكورة آنفاً، ليس له منزلة النبوة والرسالة التشريعية وهو ليس سوىٰ وزير رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثامناً: إنّ إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام بالوحي والرسالة والنبوة هو من سنخ الإيمان بالشهادة، لا من سنخ الإيمان بالغيب؛ مثلما إنّ إيمان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالمعارف المذكورة هو إيمان بالشهادة لا إيمان بالغيب؛ إذ إنّ الوحي والملائكة الذين هم واسطة الوحي إلىٰ جانب سائر المآثر الغيبية قد نزلت علىٰ القلب المطهّر للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.[1] حين نزلت

---

١. سورة الشعراء، الآيات ١٩٣ ـ ١٩٤.

هذه المعارف المذكورة على القلب الواسع والطاهر للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فرأى جميع الحقائق، فكانت جميع هذه الحقائق مشهودة له لا غائبة عنه، فكان إيمانه صلى الله عليه وآله بتلك المعارف من سنخ الإيمان بالشهادة. وإذا أخذ عنوان الإيمان بهذه الأصول وصفاً مشتركاً بين الرسول الأكرم وسائر المؤمنين، فإنّ المقصود من ذلك هو المعنى الجامع بين الغيب وبين الشهادة ولا اختصاص لها بالإيمان بالغيب. إنّ هذه الأمور الثمانية المذكورة أعلاه ناظرة إلى علم علي بن أبي طالب عليه السلام الشهودي بالوحي وبالنبوة.

٧. مشاهدة الملائكة

يمكن أن نورد برهانين من ضمن البراهين المذكورة آنفاً لإثبات شهود علي بن أبي طالب عليه السلام للملائكة وأنّ إيمانه بالملائكة هو من سنخ الإيمان بالشهادة لا إيماناً بالغيب؛ والبرهان الأول هو كالتالي: إنّ رؤية الله تعالى بعين القلب وحقيقة الإيمان يستلزمان شهود المظاهر الإلهية؛ إذ إنّ العلم بالسبب يستوجب العلم بالمسبّب، سواء أكان هذا الأمر طبق اصطلاح الحكمة والكلام أي النظام العلّي والمعلولي أم طبق اصطلاح العرفان، أي الظهور والتشأّن والتجلّي للأسماء والصفات؛ إذ إنّ العلم بالمصدر والظاهر يكون سبباً للعلم بالصادر والمَظهَر وقد مرّ تفصيلها في الأبحاث السالفة. والبرهان الثاني هو إشارة علي عليه السلام إلى كيفية غُسل البدن المطهّر للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حين قال عليه السلام: «... ولقد وُلّيتُ غُسْلَه، صلى الله عليه وآله، والملائكة أعواني فَضَجّتِ الدار والأفنية، مَلأٌ يهبط ومَلأٌ يَعْرُجُ، وما فارَقَتْ سَمْعي هَيْنَمةٌ منهم يصلّون عليه حتّى واريناه في ضريحه...».[١]

يمكن أن نستظهر من هذا الكلام الموجز عدّة عناصر كالتالي:

أوّلاً: اطّلاع علي عليه السلام على معارف الملائكة.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٧، البند ٣.

ثانياً: لقد ملأ ضجيج الملائكة أركان المكان، ولا ينفي هذا نحيب الآخرين في هذا المكان.

ثالثاً: لقد حضر عدد كبير من الملائكة مراسم تجهيز وتغسيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ وقد كانت أفواج منهم نازلين وهابطين فيما كانت أفواج أخرى سبق أن نزلت في مهبط الوحي ومنزل أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام قد عرجت وصعدت بعد ذلك.

رابعاً: لقد شارك عدد كبير من الملائكة في الصلاة على الجنازة المقدّسة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

خامساً: لقد كانت الأصوات الخفية لصلوات الملائكة وتحياتهم العبادية ضمن مراسم الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله متواصلة لا تنقطع استمرّ طنينها في أذني علي بن أبي طالب عليه السلام بدون انقطاع إلى أن دفن الجسد الطاهر للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

بناء على ذلك، قد كان حضور عدد من الملائكة في مراسم تجهيز الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأصل وجودهم وضجيج دعائهم وصلواتهم وهبوطهم وعروجهم ومساعدتهم في التغسيل ومشاركتهم في الصلاة وتحيتهم وسلامهم على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كلّها كانت مشهودة لعلي بن أبي طالب عليه السلام. وعليه، فإنّ إيمان علي بالملائكة وأحوالها المذكورة هو من سنخ الإيمان بالشهادة لا إيمان بالغيب.

٨. العلم الشهودي بالمعارف الدينية

لكي يتمّ إثبات أنّ علم علي بن أبي طالب عليه السلام بجميع ما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله مثلاً هو من قبيل العلم الشهودي لا إنّه من العلم الحصولي من دون أن يكون في ذلك شكّ، فإنّه يمكن الاستدلال وفق البرهان اللّمي السابق والوارد ضمن كلام علي عليه السلام. لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال ما يلي: «ما شككت في الحق مُذْ

أُرِيتُهُ».[١] يمكن أن نستنبط من هذه الجملة القصيرة جملة من الأمور كما يلي:

أوّلاً: إنّ علم علي بن أبي طالب هو من سنخ الرؤية القلبية، وليس من سنخ الرواية النقلية أو الدراية العقلية. كما إنّ تعليمه هو من قبيل الإراءة لا من قبيل النقل والحكاية أو العقل أو الدراية.

ثانياً: هذا النحو من الرؤية باعتبار كونه من عمل القلب، لا من عمل القالب وهو رسالة القلب لا إنّه من وظائف العين، فإنّه بسبب ذلك يكون منزّهاً عن الخصائص الطبيعية ويكون له وجود جمعي وتجرّدي.

ثالثاً: إنّ من له تجرّد تامّ ومن هو انسان كامل مثل أمير المؤمنين عليه السلام ينال هذه الأمور التي هي أعلى من الوسوسة والإغواء والإضلال والإزلال والإسهاء والإنساء وأمثال ذلك. وعلى هذا الأساس، لا مجال للشيطان أن يقترب من دائرة منطقة الفراغ للمخلَصين؛ إذ جعل الله سبحانه وتعالى تلك المنطقة حمى وحرماً آمناً ولم يترك فيها مجالاً للشيطان. كما إنّ ابليس قد اعترف بعدم تمكّنه من بلوغ تلك القمّة من الهرم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢] وحين يحال دون ابليس وجنوده ودون الولوج في هذه المنطقة، فلا مجال لتحقّق الباطل والكذب والزور والغرور والفرية وأخيراً المغالطة؛ إذ إنّ جميع أنحاء المغالطة هي من ايحاءات الشيطان: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾.[٣]

رابعاً: إنّ الدائرة التي لا تضمّ إلاّ الحقّ والصّدق لا يمكن أن يشوبها الشكّ؛ إذ إنّ الشكّ دوماً لا يظهر إلاّ في الدّائرة التي يشوبها أمران بحيث يحصل للشخص الناظر أو المدرِك حين يدرك شيئاً ما فيقع له الشك في تطبيق ما أدركه على هذين الأمرين.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٤، البند ٥.

٢ . سورة الحجر، آيه ٤٠؛ سورة ص، آيه ٨٣.

٣ . سورة الأنعام، الآية ١٢١.

لكن، لو أنّ منطقة ما لا تشمل إلاّ أمراً واحداً (أمر شخصي أو صنفي أو نوعي أو جنسي) ولا شيء غيره، فإنّ مدرك هذا الأمر يكون على يقين بأنّ ما أدركه إنما هو هذا الأمر الخاص (شخص أو صنف أو نوع أو جنس) باعتبار أنّه الوجود المتعيّن في هذه المنطقة المشار إليها، وبما أنّ الباطل لا مجال له في مقام الإخلاص المحض، فلا مجال في هذه الحالة للشكّ العلمي أو التردد العملي باعتبار أنّ كلّ ما يوجد في تلك المنطقة إنّما هو من قبيل الجزم العلمي أو العزم العملي.

ولهذا السبب، يكون علي بن أبي طالب عليه السلام من جهة إدراك الحقّ، صاحب جزم علمي (الشهودي) وبلحاظ العزم على الحقّ صاحب عزم عملي (إخلاص). كما إنّ هذه الحالة ثابتة لديه عليه السلام لا تتغير؛ إذ يستحيل أن يتحوّل الحقّ إلى باطل والصّدق إلى كذب والشهود إلى شبهة لدى الإنسان المعصوم.

من المفيد أن نأخذ بعين الاعتبار هذه المسألة التي مفادها أنّه ضمن التعريف بأمير المؤمنين عليه السلام قد وردت أحاديث عن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه وعن سائر المعصومين حتى لو لم تكن ظاهرة في أنّ علم أمير المؤمنين عليه السلام هو من قبيل العلم الشهودي، فهي حتماً تكون مؤيدة لهذا الأمر؛ مثل الحديث المنقول عن علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه حين قال: «إنّي لَعلى بَيّنة من رَبّي و منهاجٍ من نبيّي وإنّي لعلى الطريق الواضح أَلْقُطُه لَقْطاً»[1]؛ يمكن أن يستشمّ من تعابير من قبيل "البينة" و"الطريق الواضح" أنّها مؤيدات على أنّ علم علي بن أبي طالب عليه السلام هو من العلم الشهودي. كما إنّ قوله لابنته حال الاحتضار: "لو رأيت ما أرى ما انتحبت... إني أرى صفوف الأنبياء عليهم السلام وصفوف الملائكة ينتظرون قدومي"[2] هي من مؤيدات علم علي الشهودي.

* * *

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٩٧، البند ١١ .

٢ . البحار، ج٤، ص١١٩؛ ج٤٢، ص٢٠١.

الفصل الرابع:

السيرة والسنّة العرفانية للإمام علي عليه السلام

تمايز الأخلاق النظرية والعملية عن العرفان النظري والعملي

تتشكّل سيرة وسنّة أيّ شخص على وفق رؤيته الكونية؛ فمن لم يتجاوز مبلغ علمه دائرة الطبيعة ومن يتصوّر بأنّ الموت فناء وانتهاء كلّ شيء، فإنّ أخلاقه وسلوكه وحركاته وسكناته كلّها سوف تدور في فلك الدنيا. وإن اتّفق أحياناً أن أشار من قريب أو بعيد إلى الجانب المعنوي فلن تكون خالية من اللون المادي. فلا تنتظر من هذا الفريق أي كلام حكيم أو نصيحة مفيدة لأنّهم لا معرفة لهم بل أعرض عنهم واهجرهم هجراً جميلاً: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ الْعِلْمِ﴾.[1]

فمن كان له نصيب من العلم وكان يفكّر في العالم وفي آدم تفكيراً توحيدياً، إلاّ أنّه يتخّذ ذلك ضمن إطار التقليد، فهو وإن خرج من دائرة الذين طغوا ودخل في زمرة

---

١ . سورة النجم، الآيات ٢٩ ـ ٣٠.

من اتقوا، إلاّ أنّه مثل الأعمىٰ الذي لا يتحرّك إلاّ بمساعدة المبصر، وحيثما تتوقف عصاه فإنّ الأعمىٰ يتوقّف معها؛ إذ إنّ الأعمىٰ يكون تابعاً في حركاته وسكناته لعصاه. هذا الفريق أيضاً خارج عن حريم البحث الحاضر.

إنّ من ينعم بنعمة النّبوغ العلمي ومن ينظر إلىٰ نظام الوجود بنظرة توحيدية ويكون في هذا الكون محقّقاً لا مقلّداً، لكنّه يفكّر وفق الاستدلال المفهومي مثلما هو حال الحكماء والمتكلّمين من دون أن يرتقي إلىٰ مرتبة أعلىٰ من ذلك، فهو وإن كان علىٰ خير كبير وتشمله رفعة الدرجات الإلهية، إلاّ أنّ أساس حركته وسكونه وقيامه وقعوده ليس متيناً بما فيه الكفاية مما يحدّ ذلك من قدراته. ولهذا السبب، يكون هذا الشخص كالمريض أو الأعرج في جبهة الجهاد الأكبر والهجرة الكبرىٰ في حكم المعذور لأنه لا يجد من يشدّ أزره، إلاّ أنّه غير مأجور كما إنّ أعلىٰ حدّ يمكن أن يصل إليه في قسم السيرة والسنّة الصحيحة إنما هو قسم الأخلاق؛ أي أنّ من يتخّذ رؤية كونية من قبيل التي يتخذها الحكماء والمتكلّمون سوف تكون له أوصاف وأعمال متخلّقة لا عرفانية.

هناك فرق شاسع بين الأخلاق وبين العرفان العملي حيث تمثّل الأخلاق أبرز مثال لهذا الفرق؛ أي أنّ فنّ تزكية الروح وتهذيب النفس هو من العلوم الجزئية ومثلها مثل سائر العلوم الجزئية والاستدلالية المتفرّعة عن الفلسفة الإلهية باعتبار أنّها أخذت مبادئها وموضوعها من هذا العلم. كما إنّ العناصر المحورية لعلم الأخلاق هو معرفة الشؤون العملية للنفس وإصلاحها وتقويتها، قصد حمايتها من آفات الشهوة وأضرار الغضب وإيصالها ضمن الجهاد الأوسط إلىٰ حدّ الاعتدال والذي هو العدالة باصطلاح أهل الأخلاق. إلاّ أنّ العرفان العملي مرتبط بالعرفان النظري والذي هو أعلىٰ من الفلسفة الإلهية حيث يزيل عنها جميع الحجب وهو ترب لها ومرافقها في الحركة.

إنّ موضوع الفلسفة الإلهية هو حقيقة الوجود من دون أن يختصّ بخصوصية طبيعية أو رياضية أو أن يتقيّد بقيد منطقي أو أخلاقي. كما يعود هذا الوجود ضمن التحليل الدقيق، إلى حقيقة الوجود "بشرط لا"، أي الوجود مع عدم التخصّص ومع عدم التقيّد بالقيود الأربعة سالفة الذكر. إلاّ أنّ موضوع العرفان النظري هو حقيقة الوجود "لا بشرط" بحيث لا يُلحظ فيه لا ما ذكر من قيود سالفة الذكر ولا التقيّد بعدم القيود المشار إليها أعلاه. وبما أنّ سعة أو ضيق العلوم البرهانية يعود إلى دائرة مواضيعها. وموضوع العرفان النظري ليس فقط أوسع من مواضيع العلوم الاستدلالية فحسب بل هو أوسع حتى من موضوع الفلسفة الإلهية الواسع. وعلى هذا الأساس، يكون العرفان النظري سلطان جميع العلوم.

من جهة أخرى، يقع البحث في إطار فنّ الأخلاق النظرية عن "ما ينبغي" و"مالا ينبغي" فيما يقع البحث في الرياضيات والمنطق عن "ما يكون وما لا يكون المقيّدين" فيما يقع ضمن الفلسفة الإلهية البحث حول "ما يكون وما لا يكون المطلقين نسبياً" إلاّ أنّ العرفان النظري يبحث عن "الكون المطلق الذاتي ومظهره".

على أيّ حال، يقع العرفان النظري الذي هو عصارة مشاهدات العارف والتي يتمّ إبرازها بلسان البرهان، في قمّة هرم العلوم الاستدلالية. كما إنّ العرفان العملي هو الولوج في ميدان الجهاد الأكبر، أي تلك الساحة الساخنة التي تشهد منافسة حادّة بين العقل وبين القلب، وبين الحكمة وبين العرفان، وبين المعقول وبين المشهود وبين الفهم وبين المشاهدة. يسعى الحكيم والمتكلّم إلى فهم الحقائق بينما يسعى العارف إلى رؤية الحقيقة؛ يقول الحكيم والمتكلّم: الحدوث والحركة والنظم والإمكان و.... دليل وجود القديم والمحرّك والناظم والواجب و... بينما يقول العارف: ما لديك في قفص النّفس هو مفهوم القديم والمحرّك والنّاظم والواجب لا مصداقه. كما إنّ جميع هذه العناوين هي مخلوقة وممكنة بالحمل الشايع وإن كان لكلّ منها بالحمل الأوّلي عنوانه

الخاص. وإذا قال قائل: إنّ مقصودي هو الواجب الواقعي والقديم الخارجي لا الذهني، فإنّ العارف يجيبه بأنّ عنوان "الواقع" والذي يكون لفظه على لسانك ومفهومه في نفسك هو "واقع" بالحمل الأولي و"غير واقع" بالحمل الشايع. كما إنّ عنوان "الخارج" هو خارج بالحمل الأولي و"ذهني" بالحمل الشايع. كما إنّ عصارة كلام العارف إلى الحكيم والمتكلّم هو أنّكما تطلبان المعلوم، من دون أن تنالا العلم، كما أنّكما تسعيان نحو الموجود العيني لكنّكما لا تصيبان غير الموجود الذهني. كما إنّ نصيب الحكمة والكلام ليس سوى العلم بينما يكون المعلوم، إلاّ أنّ غرض العرفان هو المعلوم، لا العلم الذهني، ومطلوبه الواقع لا المفهوم الاعتباري، والمحكي لا الحاكي وفي النهاية يكون شعار قطب العرفاء: «ما كنت أعبد ربّاً لم أرَه»[1] جارياً على اللسان بكل قوة مسجلاً حضوره في ساحة النزاع بين العقل والقلب والحرب بين العلم والعين.

ضمن فنّ العرفان العملي والذي يعدّ بنحو ما ثمرة للعرفان النظري، ليست دوافع العارف أن يحصّل العدالة وأن يتجنّب الوقوع في الذنوب ليحقّق فضيلة التقوى؛ إذ إنّه قد طوى جميع محطات هذا الطريق وقد وصل إلى عقبة كأداء هي عقبة "الشهود" والتي يكون أوّل شروطها التضحية بالنفس لا تزكيتها؛ إذ إنّ التزكية هي من وظائف الأخلاق لا العرفان. من خلال تحليل فكر ودوافع العارف وهو من تكون رؤيته الكونية مبتنية على أساس شهود الحقّ المحض والأسماء الحسنى وصفاته وجميع أجزاء الكون هو مظهر لتمام أجزاء الكون كما يرى أنّ كلّ ما في هذا العالم هو قطرة من كأس شراب من عالم الملكوتيين ظهرت في صورة ناسوتية وبروح جبروتية، لقد ملأ نور كأس الساقي الكون ضمن وعاء الملكوتيين وكسوة الناسوتيين وروح

---

١ . الكافي، ج١، ص١٣٨؛ نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

الجبروتيين، فمن المعلوم أن تكون سيرته وسنّته الخاصّة مرتكزة على شهود العين لا على فهم الذهن. ومن كان هذا حاله فإنّه قطعاً لا يكون منعزلاً في ناحية ما من العالم ولا يكون العالم الأكبر منطوياً فيه فحسب بل يكون له المقام الأعلى للعالم الواسع؛ إذ إنّ العالم هو محلّ لتجلّي صورة وجه الله، إلاّ أنّ آدم هو مظهر لوجه الله.

كما لا يغيب عنك هذا الدرّ الثمين والغالي والذي مفاده أنّ مقام الذات يعني "الهوية المطلقة لا بشرط المقسمي" هو عنقاء لا يتيسّر للحكيم أو المتكلّم فهمها فحسب بل لا يمكن كذلك للعارف أن يشاهدها. كما أنّ هذه الجملة التالية هي تحفة من تحف جوامع الكلم الموروثة عن سلالة أهل المعرفة وأساطين العرفان الصّافي وهي قولهم: «أما الذّات الإلهيّة فحار فيها جميع الأنبياء والأولياء»[١]؛ يعني أنّ جميع الأنبياء وأولياء الله في مقابل مقام الذات الإلهية المقدّسة قاصرون وفاترون وعاجزون ومتحيّرون باعتبار أنّ جميع ما يشاهدونه لا يتجاوز دائرة أسمائه وصفاته تعالى؛ أي مرحلة التعيّن؛ لأنّ الجميع قد أقرّوا بأنّه: «ما عرفناك حق معرفتك»[٢] فلا يخطرنّ في ذهنك بسذاجة أنّه يمكن لك مشاهدة الحقّ ورؤية الله بعين القلب لتحيي في قلبك الطمع في مشاهدة "الهوية المطلقة لا بشرط المقسمي"، والتي ليس للأنبياء والأولياء لها من سبيل، فما بالك بتلاميذهم.

على أيّ تقدير، ينتمي آدم إلى العالم الأعلى؛ لأنّ أحدهما مرآة لصورة الملك القهّار والآخر مرآة للملك نفسه.

يقول المحقق الدوّاني في شرحه لإحدى رباعياته ما يلي:

در جام جهان عكس رخ يار ببين — در آينه دل رخ دلدار ببين

يک نور چو بر روزن بسيار افتد — ظاهر شده در صورت انوار ببين

---

١ . شرح القيصري على الفصوص، الفصّ الآدمي، ص٧٠ـ٦٩.

٢ . البحار، ج٦٨، ص٢٣، ح١.

أمّا فيما يخصّ كون العالم مظهر لصورة الوجه وكون مرآة القلب مظهراً لنفس الوجه، فإنّها أمور دقيقة لكنها لا تخفى على قلب الفطن اللبيب...[١].

خلاصة الكلام هو أنّ العارف يعيش بشكل شهودي بينما يعيش الحكيم والمتكلّم حياة علمية. وإن كان العارف يحيى بصورة عرفانية، فإنّ الحكيم والمتكلّم يحييان بصورة أخلاقية. إنّ المسافة الفاصلة بين العرفان وبين الأخلاق تؤدّي إلى إيجاد فاصل بين طرازين من الحياة وإلى تميّز خاص للحياة العرفانية على الحياة المتخلّقة.

الكوثر العلوي هو ماء الحياة

بعد أن عرضنا بحثاً مختصراً حول مبادئ الموضوع المذكور، ندخل في صلب الموضوع وهو كالتالي، الإنسان الكامل والخليفة التامّ والمعصوم من قبل الله مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل صلوات المصلّين هو ميزان العقيدة والأخلاق وأعمال الآخرين؛ مثلما نقل عن الإمام الصّادق عليه السلام في زيارة علي بن أبي طالب عليه السلام: «السلام على ميزان الأعمال ومقلّب الأحوال وسيف ذي الجلال».[٢] ومثلما هو معمول به في العلوم الحصولية والاستدلالية، فإنّ المبادئ البديهية والأولية هي مرجع تحديد صحّة أو سقم القضايا النظرية، ومن دون تحليلها وإرجاعها إلى القضايا البيّنة فإنّها لا تكون مبيّنة، وأيّ كشف وشهود لغير المعصوم فهو بمنزلة القضية النظرية وغير الأوّلية التي لا مجال للإطمئنان لصحّتها وسلامتها إلاّ بالرجوع إلى مقارنتها مع كشف وشهود المعصوم؛ إذ إنّ هذا النحو من الشهود معصوم ويكون بمنزلة القضية الأوّلية ويكون مقياساً لتقييم شهود غير المعصوم. ولهذا السبب، لا يمكن الإستماع إلى أيّة طامّة يدّعيها مدّعي أو أيّ إفك يصدر عن متوهّم أو مختال. كما إنّ الصراط المستقيم للكشف والشهود مثله مثل الصراط المستقيم للبرهان العقلي وللدليل العقلي المعتبر

---

١ . شرح رباعيات الفلسفي المحقق الدواني، ص٥٥.

٢ . المزار، الشهيد الأوّل، ص٤٦.



«أدَقّ من الشَعْر وأحَدّ من السيف». وبناء على ذلك، ليست سيرة الإمام علي عليه السلام وسنّته سوى ماء الحياة والتي يدور في فلكها خضر كلّ زمان والتي تظهر في المعاد في صورة كوثر.

إنّ من يسعون اليوم إلى إشباع رغبات المتعطشين إلى المعارف والمآثر عبر تعليمهم الكتاب والحكمة والتزكية، فإنّهم سوف يرتوون غداً بماء الكوثر؛ أي أنّ معلّم ومربّي اليوم هو الساقي غداً. وإذا ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال في حقّ علي بن أبي طالب عليه السلام: «علي عمود الدين»[1] فإنّه ناظر إلى هذا الأصل.

وفيما يلي نعرض جملة من الأمثلة التي تظهر صوراً عن الحياة الشهودية والعرفانية ضمن حياة الإمام علي عليه السلام نستعرض منها ما يلي:

١. العبادة العرفانية:

نظراً إلى أنّ إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام يبتني على معرفة شهودية وعلى إيمان بالشهادة لا إيمان بالغيب، فإنّ عبادته لله تكون عبارة عن زيارة له. وقد قال في تفسير «قد قامت الصلاة»ما يلي: «حانَ وَقتُ الزيارة والمناجاة وقضاءالحوائج و درك المُنى والوصول إلى الله عزّ وجلّ وإلى كرامته وغفرانه وعفوه ورضوانه»[2]؛ أي حان وقت زيارة المعبود وشهوده؛ إذ إنّ حال الصّلاة، يكون العبد في حوار مع الله. إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام والذي هو عمود الدّين، يجعل الصّلاة التي هي مصداق آخر لعمود الدّين شهوداً إلهياً وزيارة للمعبود. ومن ينال زيارة الجميل المحض فإنّه لا يرى نفسه أبداً فما بالك بشهود نفسه. وبالضرورة تكون سائر الموجودات ضمن مشاهداته في المحاق.

---

١ . الكافي، ج١، ص٢٩٤، ح٣.

٢ . توحيد الصدوق، ص١٢٤، ح١؛ معاني الأخبار، ص٤١، ح١.

إنّ هذا النحو من العرفاء من أهل الشهود لا يعبد الله رغبة في جلب المنفعة ولا عبادة العبيد بل يعبده عبادة الأحرار بحيث يكون ليس فقط متحرّراً من أيّ لون من ألوان "التعلّق"، بل هو حرّ من أيّة صبغة "تعيّن": «إِنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[١]؛ «لو لم يتوعّد الله على معصيته لكان يجب أن لا يعصىٰ شكراً لنعمه».[٢] إمام همام كهذا يصف مقام عبوديته كما يلي: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[٣]؛ بما أنّ عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام عبادة شهودية لا عبادة عبيد أو زهّاد أو تجّار وأمثال ذلك، بينما الشاهد الكامل يرىٰ كلّ شيء من منظر الشهود، لا من منظر إرادته أو دوافع الآخرين؛ بحيث كلّما تعلّقت إرادته بمشاهدة أمر فإنّه يراه ويسمعه وينتبه له، وكلّما لم تتعلّق إرادته بمشاهدة أمر ما فإنّه لا يكون له أيّ اهتمام له.

ومن هذا المنطلق، يمكن الجمع بين قضيتين تاريخيتين مأثورتين حول أمير المؤمنين عليه السلام: إحداهما نزع نصل سهم من رجله أثناء السّجود من دون أن ينتبه إلىٰ ذلك، والثانية تتعلّق بتنبّهه إلى المسكين الذي دخل المسجد يطلب صدقة فأشار عليه السلام له إلىٰ خاتمه وهو في حال ركوع. هذا إثبات وذاك نفي، وضمن هذا إعمال للعناية وضمن ذاك عدم إيلاء للعناية وكلاهما من منظر شهود المعبود. ولهذا السبب، لا يدعو هذا الأمر إلى التعجّب أو التساؤل؛ إذ إنّ الصلاة التي هي عمود الدّين هي عمود خيمة المعراج والمناجاة، كما أنّ المصلّي يكون في حال عروج نحو المعبود وفي حال مناجاة معه. وبناء علىٰ ذلك، تكون مجاري إدراكه مثل العين والأذن ومجاريها المحرّكة

---

١ . نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧.

٢ . نفس المصدر، الحكمة ٢٩٠.

٣ . البحار، ج٦٧، ص١٩٧.

لها مثل اليد والرجل كلّها ضمن اختيار المعبود، لا ضمن اختيار العابد. ولهذا السبب يكون له جانب خَلقي مغفول عنه بينما يكون الجانب الإلهي معقولاً ومقبولاً ومؤثّراً.

والشاهد ضمن هذا التحليل المذكور هو قصّة مفصّلة خلاصتها كما يلي: أهدي للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ناقتان. فقال لأصحابه: من منكم يصلّي ركعتين بطهارة تامة وبكل خشوع ويأتي بها بكلّ أجزائها وشروطها من دون أن يفكّر قيد أنملة في أمور الدّنيا حتّى أعطيه إحدى الناقتين. فلم يقم إلى ذلك غير علي بن أبي طالب عليه السلام و... فنزل جبرائيل وقال: الجليل يقرئك السلام ويقول لك اعط إحدى الناقتين إلى علي عليه السلام. فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: بشرط أن لا يفكّر في أيّ أمر من أمور الدّنيا بينما فكّر علي عليه السلام في أثناء التشهّد أيّ الناقتين تكون من نصيبه. فقال جبرائيل: لقد كان فكر علي منشغلاً بأن يأخذ أكبر وأسمن الناقتين لينحرها في سبيل الله ويتصدّق بها وهو فكر إلهي وليس تفكيراً دنيوياً فبكى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأعطى علياً عليه السلام الناقتين. فنحر علي عليه السلام الناقتين وتصدّق بهما في سبيل الله[1].

خلاصة الكلام هي أنّ عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام كانت عبادة عرفانية، لا إنّها عبادة حكماء أو متكلّمين، وبما أنّ عبادة العرفاء هي فوق سائر العبادات لا في عرضها، فإنّها تحوي جميع الكمالات العبادية مع تميّزها عن سائر العبادات بميزات خاصة.

٢. الدعاء الشهودي

يمثّل الدّعاء والتضرّع العلوي عليه السلام استناداً إلى حياته الشهودية طلباً للرؤية الكاملة والشهود التامّ والزيارة المستمرّة لله تعالى. كما إنّ سائر أدعية علي عليه السلام لاتتنافى مع هذه الهمّة العالية؛ إذ إنّ الإنسان الذي هو "مختصر شريف" وكون جامع" يكون

---

١. مناقب ابن شهر آشوب، ج٢، ص٢٠؛ تأويل الآيات الظاهرة، ج٢، ص٦١٢؛ البحار، ج٣٦، ص١٦١.

واجداً لجميع مراحل الكمال، والتي تتكيء على رأس هرم الحياة العلوية الشهودية عليه السلام.

يمكن مشاهدة عظمة مشهود أمير المؤمنين عليه السلام في المناجاة الشعبانية؛ إذ جاء فيها مناجاة من هذا القبيل: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، و أنِر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قُدُسِك... إلهي وألحقني بنور عزّك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً مراقباً، يا ذا الجلال والإكرام»[1] لقد وردت جملة من الرغبات والطلبات في هذه المناجاة والتي نشأت من الحياة الشهودية والسيرة والسنّة العلوية العرفانية.

إذا كان بعض الأنبياء الإلهيين قد طلب منحه مُلكاً منحصراً به: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[2] فإنّ طلب علي بن أبي طالب عليه السلام هو أن يكون له طلب الحصول على شهود "المالك" لا "المِلك" ولا "المُلك"؛ إذ ليس له لا هوى أن يكون مالكاً ولا أن يكون ملكاً، بل ليس له سوى أن يكون له شوق لشهود المالك الحقيقي والملك الواقعي. ولنيل هكذا مطلوب فإنّ تعارض ذلك معنا سيان، وكذا الإعتراض على ذلك والإعراض عنه بعنوان قطع للطريق، ولأجل التحرر من جميع هذه الصعوبات لا يكفي "قطع" الإرتباط مع هذه الأمور فحسب، بل لا يكفي في ذلك حتى "الإنقطاع" عنها، بل لا يكفي سوى "كمال الإنقطاع". وفي هذه الحالة الأخيرة فقط، يقطع السالك السّاعي أيّ إحساس له بها سوى الحقّ، وكذلك لا يكون له أيّ إحساس بزوال الإرتباط بها؛ إذ إنّ "الانقطاع" أعلى من "القطع"، كما إنّ "كمال الانقطاع" هو أعلى من الانقطاع نفسه. ففي مرحلة كمال الانقطاع لا يكون هناك أيّ

---

١ . مفاتيح الجنان، المناجات الشعبانيّة.

٢ . سورة ص، الآية ٣٥.

تنبّه إلى ترك ما سوى الحقّ.

ومن اللازم لتحقيق هذا المقصد أن يحصل له نور إلهي خاص، يخرق بـه الحجـب النورانية بعد أن يخرق به الحجب الظلمانيـة؛ وباعتبـار أنّ سلـسلة المعـارف الإلهيـة في طول بعضها البعض بحيث تكون الحلقة الأعلى مانعاً للحلقة الأدنى من الإرتقـاء إلى أعلى من ذلك، وهذا في حدّ ذاته منبع نوراني لا إنّه حاجب ظلماني. وبنـاء عـلى ذلـك، لكي ينال صاحب الحلقة الدنيا مقاماً أعلى، يلزم توفّر عنصرين محوريين: الأوّل هو أنّ الحلقة الدنيا مثلها مثل الملائكة محكومة بأصل حاكم عليها وهو: ﴿**وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَـامٌ مَعْلُومٌ**﴾[1] فلا يكوننّ متعسّراً على صاحب هذا المقام أن يحقّق ترقياً أعلى من المقام الذي هو عليه. والثاني هو استمداد العون والمدد مـن روح القـدس ليـتمكّن مـن اسـتبدال استعداد الحلقة الدنيا إلى الترقّي إلى أمر فعلي وبعنوان محرّك وقوة جاذبة يجذبها إلى أعلى حتى يتمكّن من خرق حجب الحلقة الأعلى لينال في النهاية هذا المقام الأعلى.

ليس إدراك الهوية المطلقة عن طريق إدراك بعض المظاهر والآيات أمراً غير متيـسّر فحسب، بل وفق تعبير عين القضاة الذي يعبّر عنه المحقّق الدوّاني بأعلم أهل همدان[2]، فإنّ إدراك بعض الصفات أيضاً عن طريق المشاهدة أمر غير ممكن؛ إذ إنّـه قـد قسّم في كتابه "زبدة الحقائق" الصفات الإلهية إلى قسمين: قسم يمكن للعقـل أن يفهمهـا عـبر النظر في المخلوقات، من قبيل صفات الصّانع والخالق والحكيم و... بينما يكون القسم الثاني عبارة عن صفات نفسية غير إضافية فلا تتعلّـق بـأيّ موجـود، فيكـون إدراكهـا متوقّفاً على ظهور "طور ما وراء العقل"؛ من قبيل وصف الكبرياء والعظمـة والجـمال والبهاء و...[3].

---

١ . سورة الصافات، الآية ١٦٤.

٢ . شرح الرباعيّات الفلسفية، المحقق الدواني، ص٧٣.

٣ . زبدة الحقائق، ص٣٢، الفصل ٢٥.

إنّ ما جاء في المناجاة الشعبانية يعود إلى القسم الثاني من الأوصاف الإلهية التي لا يمكن إدراكها من دون ظهور طور عرفاني خاصّ هو وراء طور العقل البرهاني. ولهذا السبب، طلب علي بن أبي طالب عليه السلام الوصول إلى معدن العظمة الإلهية بواسطة إنارة أبصار القلب وخرق جميع الحجب النورانية. بعد خرقها لجميع الحجب الظلمانية والنورانية، لا تحتاج الروح الإنسانية للسالك إلى البدن، بل يكون البدن محتاجاً إليها؛ هذا النحو من الرّوح لا يرتكز سوى على المبدأ الفاعلي ونظراً إلى أنّ المبدأ الغائي هو نفسه عين المبدأ الفاعلي، فإنّ الروح الواصلة إلى معدن العظمة والجلال لا ترتبط سوى بعلل الوجود، يعني أنها ترتبط فقط بعلل الوجود أي الفاعل والغاية. وفي المقابل هي لا علاقة لها بعلل القوام يعني المادّة والصّورة والجنس والفصل. وهذا النحو من التحرر من الطبيعة والتعلّق بما وراء الطبيعة بحيث يكون مثلما جاء في المناجاة الشعبانية «تصير أرواحنا معلّقةً بعزّ قدسك».

لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل حول هذا الأمر: إنّ حجج الله هم قوم «صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقةٌ بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه».[1]

يعني في الحالة المذكورة، يكون للإنسان الواصل بدناً، ويكون هذا البدن محتاجاً إلى الرّوح وليس العكس ولا تكون هذه الحاجة متبادلة بين الروح وبين البدن حتى يحتاج كلّ منهما إلى الآخر.

للدعاء العلوي عليه السلام ضمن حفظه للحياة الشهودية وارتقائه إلى أعلى المراتب، تجليات متعددة يمكن مشاهدة البعض منها كذلك ضمن الدعاء الذي علّمه إلى نوف البكالي؛ إذ ضمّ هذا الدعاء التعليمي الفقرة التالية: «فأسألك باسمك الّذي ظهرتَ به

١ . نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧، البند ١٤.



لخاصّة أوليائك فوحّدوك وعرفوك، فعبدوك بحقيقتك، أن تعرّفني نفسَك لأقِرَّ لك بربوبيّتك على حقيقة الإيمان بك، ولا تجعلني يا إلهي ممّن يعبد الاسم دون المعنى، والحظني بلحظةٍ من لحظاتك تنوّر بها قلبي بمعرفتك خاصّة ومعرفة أوليائك، إنّك على كلّ شيء قدير».[1] إنّ ما يرتسم في ذهن الحكيم أو المتكلّم ليس الله ولا أمر مماثل لله. أمّا أن يكون ذلك هو الله فمحال، إذ إنّ أيّ عنوان أو مفهوم أو صورة عقلية وأمثال ذلك ممّا يرتسم في ذهن الإنسان، وإن كان بالحمل الأولي له عنوانه الخاص؛ مثلاً عنوان "الله" بالحمل الأولي هو الله، لكنه بالحمل الشائع الصناعي صورة ذهنية وممكن ومخلوق وأمثال ذلك. وعليه، فإنّ أيّ اسم أو مفهوم أو أمثال ذلك بالحمل الشايع لا يمكن أن يكون الله. وأمّا ما لا يرافقه ذلك المفهوم أو العنوان أو الصورة الذهنية فإنّه يقع ضحية عبادة الاسم من دون أن يحصّل فضل عبادة المسمى. من جهة أخرى، لا تكون الصورة الذهنية مماثلة لله حتى ينتقل عبر طريق التماثل من المثل إلى ما يماثله؛ إذ إنّ الله تعالى منزّه عن المثل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] كما أنّ من يريد أن يعبد الاسم والمسمّى أو الصورة والمعنى كلاهما فإنّه يقع ضحية الثنوية والشرك. وعلى هذا الأساس، لا مفرّ من ضرورة عبادة المسمّى والمعنى المحض والذي لا يمكن نيله إلاّ بواسطة المعرفة الشهودية. وما جاء في هذا الدعاء ناظر إلى هذا القسم المعرفي والعبادي والإبتهالي.

يختلف ابتهال السالك الساعي بحسب درجات السلوك والشهود؛ فمن وصل إلى مقام "كأنّ" فإنّه يتكلّم عن "المقاربة" كما إنّ دعاءه يكون في ضمن هذا الإطار، نظير من وصفتهم خطبة المتّقين كما يلي: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم،

---

١ . البحار، ج٩١، ص٩٦، ح١٢.

٢ . سورة الشورى، الآية ١١.

فهم والجنّة كمن قد رأها فهم فيها مُنعَّمون وهم والنار كمن قد رأها فهم فيها مُعذَّبون».[١] كما أنّ ما جاء في دعاء كميل هو ناظر إلىٰ هذه المرحلة كذلك. كما أنّ السالكين يختصّون بهذه المرتبة: «فهبني يا إلهي و سيّدي و مولاي و ربّي، صبرتُ علىٰ عذابك فكيف أصبر علىٰ فراقك وهبني صبرت علىٰ حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلىٰ كرامتك».[٢] إلاّ أنّ من وصل إلىٰ مقام "إنّ" بعدما تجاوز منزلة "كأنّ" هو مثل ذلك السالك الشاهد الواصل والذي علىٰ فرض المحال أن يكون معذّباً فإنّ له طاقة الصّبر علىٰ ذلك؛ إذ أوّلاً: إنّ جميع أنواع الأحاسيس تصدر من الرّوح لا من البدن. ثانياً: أثناء الاستغراق، لا يمكن للروح حال شهودها للجمال الإلهي أن تنتبه إلىٰ ما سوىٰ الحقّ. ثالثاً: لا يمكن لقطع أعضاء البدن وإحراقها أن يوجد أدنىٰ إحساس في الرّوح. وعلىٰ هذا الأساس، يكون لسان حال ومقام واستعداد هكذا عارف شاهد قد تجاوز مرتبة "كأنّ" ووصل إلىٰ مرحلة الفعل؛ أي إذا كنت معذّباً فإنني قطعاً أصبر علىٰ ذلك، لكن باعتبار أنّ التعذيب علامة الانفصال. كما أنّ هجران المحبوب عذاب روحي وهذا الألم إنّما هو ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[٣] وهذا الأمر يستدعي طاقة خارقة. إنّ دلال وغنج العبد في مشهد المولىٰ وعتابه المدلّ[٤] في ساحة القدس الربوبي هو علامة علىٰ الشهود التّام والوصول إلىٰ المقام المنيع الإلهي وإلاّ فإنّه «ما للتّراب و ربّ الأرباب»، والذي يقال له: «إن أخذتَني بجرمي، أخذْتك بعفوك»[٥]؛ أي لو تقول لي: لماذا أذنبت، فإنّي أقول لك: لماذا لا تعفو عنّي؟ إنّ هذه

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

٢ . مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٣ . سورة الهمزة، الآيات ٦ ـ ٧.

٤ . إشارة إلىٰ جملة «مُدِلًّا عليك» في دعاء الإفتتاح.

٥ . مفاتيح الجنان، المناجات الشعبانية.

المناجاة المدلّة والدعاء المتدلّع عوضاً عن الدعاء المتذلّل هو دلالة على الأنس الكامل بين الداعي وبين المدعو والذي يظهر في مرحلة الشهود النهائي. أمّا من لم ينل هذه المنزلة العالية ويتلو هذا الدعاء فإنه يقرأه من باب النيابة عن الواصلين لجناب الحق أو أنّه يقصد معان أخرى.

إنّ من المفيد أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو مصداق كامل للمتّقي وما جاء في خطبة المتّقين: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر مادونه في أعينهم»كيف يمكن أن تنسجم مع تعبيره الآخر حول أخ له في الله حيث قال: «كان لي فيما مضى أخٌ في الله وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه وكان خارجاً من سلطان بطنه...»[١]؛ إذ أنّ لازم هذا الكلام هو أنّ ما سوى الله عند علي بن أبي طالب عليه السلام أمر كبير. إلاّ أنّنا بعد التدقيق نعلم أنّ الوصف المذكور يعني أنّ عظمة الأخ في الله في نظر علي بن أبي طالب هو من سنخ الوصف بالحال المتعلّق بالموصوف، لا هو الوصف نفسه؛ يعني باعتبار أنّ هذا الأخ في الدين يسير في ظلّ السلوك الصّادق والمعرفة فإنّ له تفكيراً إلهياً ودوافع ربوبية كما لا يعيش في مدار العلم ومحور العمل إلاّ ضمن القانون الربوبي. ومن هذا المنطلق، يكون تعظيم هذا الأخ تعظيماً بالأصالة للأوامر الإلهية وبالعرض هي تعظيم لذلك الشخص السالك والذي هو مظهر لكرامة الله.

٢. الدعوة العرفانية

مضافاً إلى ما مرّ ذكره، فإنّ دعوة علي بن أبي طالب عليه السلام كانت شهودية كذلك؛ إذ ادّعى أنّه «ما كنت أعبد ربّاً لم أره»[٢]، فإنّ "العبادة" و"الدعاء" عنده عليه السلام لهما بعد عرفاني؛ مثلما يؤيد ذلك ما سلف ذكره آنفاً. ويصل الدور الآن لتوضيح "الدعوة

١ . نهج البلاغة، الحكمة ٢٨٩.

٢ . الكافي، ج١، ص١٣٨؛ نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

العرفانية" عند علي عليه السلام؛ إذ إنّه وإن كان يعلّم أصحاب النظر على أساس الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، إلاّ أنّه كان يدعو أهل البصيرة من ذوي الاستعداد والمتعطّشين على أساس تزكية النفس بالسير والسلوك والشهود وأحياناً يرشدهم بعنوان بيان وصف حال السالك فيقول: «قد أحيا عقله و أمات نفسه، حتّى دقّ جليله و لطف غليظه، و برق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»[1] ترتكز حياة العقل النظري على "المعرفة الصّائبة" بينما ترتكز حياة العقل العملي على "المحبّة الصّادقة". إنّ روح السّالك المزكّاة والتي يكون "في وحدتها كلّ القوى"[2] تنال الحياة السعيدة عبر نيلها للحياتين المذكورتين أعلاه واللتين هما عبارة عن جناحي حمامة جنّة الملكوت، كما أنّ النفس المسوّلة و النّفس الأمّارة تضحيّان من أجلها فتتعدّل الخصائص النباتية والضخامة الحيوانية وتخضع جميع القوى الإدراكية من قبيل الحسّ والخيال والوهم إلى إمامة العقل النظري بعنوان كونه "ماء حياة متوقّعة" كما أنّ جميع قواها المحرّكة من قبيل الشهوة والغضب وجميع الأغراض والغرائز تنضوي تحت إمامة العقل العملي "ماء الحياة الفعلية" كما إنّ ميولها كذلك يتمّ تنظيمها وفق حاكمية هذا الإمام الهمام.

وفي هذه الحالة، تكون صفحة مرآة الرّوح المزكّاة مصقولة مثل مرآة صافية نظيفة من شوب الغبار فتتهيأ لظهور أسرار ورموز الآيات الإلهية التي لا يغطّيها أيّ حجاب. عند ذلك، يسطع برق النور الإلهي فيربط بين كأس عالم الظهور الإنساني وبين آيات الله سبحانه. وبما أنّ العناصر المحورية للرؤية أي سلامة باصرة القلب

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٠.

٢ . شرح المنظومة للسبزواري، قسم الحكمة.

وبصيرة الروح من جهة ووضوح الآيات الإلهية وانكشافها من دون حجب من جهة ثانية ووفرة وميض البرق ولمعانه الكبير من جهة ثالثة قد وصلت إلى أوجها، فإنّ السالك السّاعي في هذه الحالة، يرى بكلّ وضوح الصراط المستقيم الذي هو أحدّ من الشعرة كما يمرّ بكلّ يسر فوقه وهو الذي يكون المرور عليه أصعب من المرور فوق حدّ السيف المصقول. وبما أنّ الصراط المستقيم طريق طويل وله مراحل متعدّدة، فإنّه يطويها واحدة بعد أخرى في سلامة تامّة حتى يصل إلى محضر السلام المحض والذي هو أحد أسماء الله الحسنى فيقيم عند المأمن الإلهي المقيم والتي هي "دار القرار". وبما أنّ عظمة مقام الغيب ترعب المتربّين من ذوي نشأة الشهادة فتمهّد الطريق في طليعة عملها خوفاً محموداً وخشية ممدوحة ووجلاً مرغوباً للسالك مثل ما تقول الآية ﴿إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]. عند ذلك يحصل الأنس بالتدريج ويرتفع الرعب في المقابل إلى أن يتحقّق الأمن الكامل وتستقرّ الطمأنينة التامّة كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾[2] كما لا يستنبط من الآية الكريمة ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3] بأنّ الطمأنينة المذكورة تحصل من بدء السير والسلوك.

هناك عدّة شروط بالنسبة للسالك الساعي نذكر بعضاً منها وهي عبارة عن الأوصاف الخمسة التالية: الصّمت والجوع والسّهر والخلوة والمداومة على الذّكر.

هذا، وليس المقصود من الذكر الدّائم أمراً في عرض الأوصاف الأربعة الأخرى وفي مقابلها، بل هي أمر يحيط بها ومغاير لها. ومن هذا المنطلق، ينبغي أن تقع

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٢.

٢ . سورة الزمر، الآية ٢٣.

٣ . سورة الرعد، الآية ٢٨.

الأوصاف الأربعة السابقة قربة إلى الله وإن كان لكلّ واحدة من هذه الأوصاف من جهة الرجحان التوصّلي لا التعبّدي أثر وضعي وطبيعي، إلاّ أنّ خاصيتها المعنوية تتحقّق حين تكون ذكراً إليهاً. وضمن ترغيبه في "الجوع" قد قال أمير المؤمنين عليه السلام حول المسيح عليه السلام: «... ويأكل الجَشِبَ وكان إدامُه الجوع»[1]؛ لقد كان يأكل خبزاً يابساً بحيث كان إدامه الجوع.

قال يحيىٰ بن معاذ: لو كان الجوع سلعة تباع في الأسواق لكان من اللائق بطالب الآخرة أن لا يشتري إلاّ سلعة الجوع. الجوع بالنسبة للمريدين رياضة وبالنسبة للتائبين تجربة وبالنسبة للزاهدين سياسة وبالنسبة للعارفين كرامة.[2]

قال بعض شرّاح نهج البلاغة ضمن نقل أقوال فريق من الحكماء كابن سينا[3] والعرفاء كالقشيري فيما يخصّ البرق اللامع ما يلي: هم (الحكيم والعارف) تابعون لألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام؛ باعتبار أنّه أحكم الحكماء وأعرف العرفاء... وإن لم تكن أخلاقه وكلامه وتعليمه للناس بواسطة القول والفعل، فلا أحد من هذه الطائفة يمكنه أن يهتدي إلى هذه المسائل[4].

إنّ كلام أمير المؤمنين حول الصّمت والسّهر و... كلام خالد؛ لقد قال حول الصّمت الصّائب والصّحيح ما يلي: «... بعيدٌ همّه، كثير صَمْته»[5]؛ كما قال حول السّهر وإحياء الليل ما يلي: «اسهروا عيونكم واضمروا بطونكم»[6] هذا، وقد ورد كلام

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

٢ . شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج١١، ص١٣٠.

٣ . الإشارات و التنبيهات، النمط التاسع.

٤ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١١، ص١٣٨ ـ ١٣٩.

٥ . نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٣.

٦ . المصدر السابق، الخطبة ١٨٣.

لأمير المؤمنين عليه السلام حول الخلوة والذكر؛ كما لم يخل كلامه من جملة من الشروط الأخرى المرتبطة بالسلوك.

وإن كان جهاد السالكين الإلهيين بنفع أنفسهم: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.[1] إلاّ أنّ الله قد بيّن كيفية الجهاد ضمن الخوف الإلهي ومخالفة هوى النّفس: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[2] إلى جانب تحقّق الهداية الخاصة لهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[3]

ما أشير إليه إلى حدّ الآن هو أنّ "ادّعاء" و"عبادة" و"دعاء" و"دعوة" علي عليه السلام لها لون عرفاني. وبما أنّ العرفان الصافي هو سلطان الكمالات العلمية والعملية الأخرى، فإنّ الرجوع إلى سنّة وسيرة علي عليه السلام الجامعة تؤمّن الاحتياجات العلمية والعملية لجميع الراغبين في تحصيل المعارف الإلهية؛ إذ إنّ كلّ كمال يتفوّق على جميع المزايا التي هي ما دونه إلاّ أنّها في نفسها تفتقد لمزّية الكمال الأعلى. هذا، وإن كان يمكن للحياة الكلامية أو الحكمية أن تؤمّن الاحتياجات العلمية والعملية للعبّاد والزهّاد و... إلاّ أنّها تفتقد لقدرة رفع احتياج العرفاء، إلاّ أنّ الحياة العرفانية لها القدرة على تأمين جميع الاحتياجات المذكورة آنفاً. وعلى هذا الأساس، قال علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الصّدد ما يلي: «إنّي لَمِن قومٍ لا تأخذهم في الله لومة لائمٍ سيماهم سيماء الصدّيقين وكلامهم كلام الأبرار، عُمّار الليل ومنار النهار، مستمسكون بحبل القرآن، يُحيون سنَنَ الله وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلّون، ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل».[4]

---

١ . سورة العنكبوت، الآية ٦.

٢ . سورة النازعات، الآيات ٤٠ ـ ٤١.

٣ . سورة العنكبوت، آية ٦٩.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

إنّ من له علامة وسمة الصّديقين فإنّه يكون حيّاً بالحياة العرفانية. كما أنّه يكون لهذا الشخص القدرة على إحياء مآثر وآثار الله والنبي، كما يكون منزّهاً عن أيّ عيب أو نقص أخلاقي. وعلى هذا الأساس، يكون قلبه من الآن في الجنّة ويكون من أهل الجنّة كما يدفع أعضاء وجوارح بدنه إلى القيام بالواجبات الفردية والاجتماعية. وقد يكون من بين مصاديق كلام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حين قال: «أنا مدينة الحكمة وهي الجنّة وأنت يا عليّ بابها فكيف يهتدي المهتدي إلى الجنّة ولا يهتدي إليها إلاّ مِن بابها»[1] هو أنّ قلب هذه الذوات المقدّسة من الآن هي في الجنّة، وإن كان بدنها مشغولاً بالإمتثال إلى الأحكام الإلهية. كما أنّ إحدى محتملات حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حين قال: «أنا مدينة الجنّة وأنت بابها يا علي. كذب من زعم أنّه يدخلها من غير بابها»[2] هي أنّ الإنسان الكامل يكون بلحاظ الرّوح من الآن في الجنّة بينما بدنه يكون تابعاً لأحكام الشريعة الإلهية. وليس معنى كون القلب أو الرّوح في الجنّة ليس مجرّد الإشتياق والأمل بورود الجنّة في المستقبل، بل يعني الكون في الجنّة من الآن واقعاً. هناك علامات لهكذا قلب وهو زوال الغِلّ والنزاع وترك الميل إلى ما سواهم.

٤. التولّي والتبرّي العرفاني

لقد اتّضح، حتى الآن، أنّ "إدّعاء" و"عبادة" و"دعوة" الإمام علي عليه السلام تدور حول محور العرفان لا حول محور الحكمة أو الكلام.

ما نودّ عرضه هنا هو أنّ حمد وذمّ أمير المؤمنين عليه السلام ومدحه وقدحه وإقباله وإدباره وأخيراً تولّيه وتبرّيه عرفانياً لا حكمياً ولا كلامياً؛ إذ إنّه ضمن تحسينه و تقبيحه للعقائد والأخلاق والأعمال، يستعين الحكيم أو المتكلّم باصطلاحات فنّ

---

١ . أمالي الصدوق، ص٤٧٢، ح٦٣٢.

٢ . أمالي الطوسي، ص٣٠٩، ح٦٢٢.

الأخلاق من دون أن يكون له إحاطة بباطن الأمور أو إشارة إلى ذلك، اللهم إلاّ من باب التشبيه أو الإغراق والمبالغة الأدبية ضمن فنّ الشعر. إلاّ أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام له إحاطة بباطن الأمور المحلّلة والمحرّمة وبباطن الأعمال القبيحة والحسنة وأحياناً حين تدعو المصلحة إلى إبراز ذلك، فإنّه يشير إلى ذلك بكلّ وضوح. وكمثال على ذلك، ورد ذكر جملة من التعابير العرفانية التي تبرز مدى إحاطة أمير المؤمنين عليه السلام بباطن الذنب والعصيان حيث جاء ما يلي:

ألف: باطن الحكومة القائمة على الهوى

بما أنّ الإمامة الملكوتية عطاء إلهي خاص اختصّ به الإنسان الكامل المنكشف له الغطاء فإنّه لم يرد له ذكر لا في الغدير ولا في السّقيفة؛ إذ إنّ هكذا منزلة تكوينية هي أعلى من التنصيب التشريعي كما لا يمكن غصبها سياسياً أبداً. أمّا الإمامة المُلكية والتشريعية والتي هي مثل العصا الخشبية التي "ينصّبها" النبي الإلهي فيما يغصبها قاطع طريق بشري فيما قوامها وأساسها علوي هو صاحب مقام كشف الغطاء، فهي عطاء تكويني لا إنّها عصا تشريعية، إلاّ أنّه قال فيما يخصّ هذه العصا التشريعية القابلة للتنصيب ما يلي:

«أما والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كِظَّةِ ظالمٍ ولا سَغَبِ مظلوم، لَأَلْقَيْتُ حبلها على غاربها ولسَقَيْتُ آخرها بكأس أوّلها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنزٍ».[1] حين لا تدور الحكومة حول محور العدل والحقّ وحين لا تسير السياسة وفق مسار الحق والعدل بل تسير طبقاً لمسار الهوى فلا يوجد في هذا الإطار سوى

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٣، البند ١٦.

متاع فاسد وسلعة دنيوية بلا فائدة، وما هي سوى لهو ولعب، ولا باطن لها سوى عفطة عنز؛ أي لو يتمّ تجسيم الهوى فإنّه سوف يظهر في صورة "عفطة عنز". إنّ هذه الرؤية العرفانية والتوصيف العرفاني يبرز مدى البصيرة الباطنية والتوجه الباطني لعلي عليه السلام؛ إذ نظراً إلى عصمته، فإنّ علي عليه السلام منزّه عن الكلام الشاعري الذي يكون "أحسنه أكذبه" وعن الإغراق غير الضروري وعن المبالغة غير الصّائبة وعن التفكير أو القول المبتني على الخيال.

ب. باطن الاعتبارات الوهمية

إنّ الدنيا بمعنى الحياة الطبيعية هي إحدى آيات الله وقد خلقها سبحانه وتعالى بكلّ جمالية خاصّة من دون أن يكون بها أي نحو من الفتور في أركانها أو فطور في عناصرها أو قصور في أجزائها؛ إذ إنّ صنع الله في أعلى درجات الإتقان الإلهي، ومن هذه الجهة تكون متجراً لأولياء الله طبقاً لما جاء في مدحها في نهج البلاغة: «ومتجر أولياء الله».[1] بينما تكون الدنيا التي هي بمعنى جميع الاعتبارات الوهمية والإنعقادات الخيالية ومحورية الهوى مذمومة ومن متاع الغرور.

إنّ الحكيم أو المتكلّم هو الذي يكون دوماً في حالة حذر من ذلك كما يحذّر الآخرين من ذلك على أساس الحسن والقبح الأخلاقيين بحيث يحفظ النفس وينصح المجتمع. لكن العارف باعتباره يرى باطن هذا اللهو واللعب فيحيط بها علماً، ونظراً إلى أنّه يشهد حقيقة صورتها القبيحة فإنّه يجتنب الوقوع فيها كما يحذّر الآخرين من مغبّة الوقوع في هذه المهالك.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام حول الدنيا بهذا المعنى ما يلي: «والله لدنياكم هذه أهون

---

١ . نهج البلاغة، الحكمة ١٣١، البند ٦.



في عيني من عِراق خنزيرٍ في يد مجذومٍ»[١]؛ بما أنّ علي عليه السلام يشهد ملكوت الأشياء فإنّه يرىٰ الدنيا في صورة عظم حيوان يحرم أكله ويكون في يد شخص علىٰ الظاهر هو غير مسلم مصاب بمرض الجذام المعدي وصعب العلاج مما يجعل العاقل يزهد عن الرغبة فيها بحيث لا يميل إليها غير السفيه. وهذا الأمر يكشف أنّ الرؤية المبتنية علىٰ مشاهدة ملكوت الأشياء ليس من سنخ التشبيه الشاعري، وهو من سنخ الرؤية الباطنية لا الإغراق والمبالغة ضمن التحسين والتقبيح، وهو من سنخ التحذير العرفاني لا من سنخ التوبيخ الأدبي، والذي يشابه هذه التعابير حول صورتها البرزخية أو صورتها الأخروية ضمن الرؤىٰ أو الروايات وضمن التناسخ الملكوتي الذي يتحقّق ضمن حفظ الوحدة الشخصية للبدن والروح وهو ما اتفق الجميع حول صحّته: "ما من مذهب إلاّ وللتناسخ فيه قدم راسخ"[٢] وليس هو تناسخ مُلكي باعتبار امتناعه عقلاً ونقلاً، إذ إنّ باطن العقيدة الباطلة والأخلاق السيئة والأعمال المحرّمة يتمّ تصويرها في شكل حيوانات قبيحة المنظر. ويشبه هذا المعنىٰ ما وقع في محضر أمير المؤمنين عليه السلام في منتصف الليل حين أعطي لأحدهم رشوة في صورة إهداء حلوىٰ شهية المذاق في الظاهر حيث قال عليه السلام في ذلك: «كأنّما عجنت بريق حيّةٍ أو قيئها»[٣]؛ وكأنّ هذه الحلوىٰ قد عجنت بريق حيّة أو بقيئها. نعم، إنّ هكذا إنسان ملكوتي يكون في حذر من الوقوع في الظلم، وإن كان قد أعطي الأقانيم السبعة[٤].

ج. الهويّة الباطنية لأهل الدنيا

يُعرف الإنسان بلحاظ المنطق والكلام والحكمة الرائجة بنوعه الأخير؛ أي أنّ

---

١. المصدر السابق، الحكمة ٢٣٦.

٢. الأسفار، ج٩، ص٦.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤، البند ٨.

٤. المصدر السّابق، الخطبة ٢٢٤، البند ١٠.

الإنسان يُعتبر نوع الأنواع ضمن سلسلة الأنواع التي تبدأ من الأعلى وتتنزل إلى أن تُختم بالنوع الأخير وهو نوع الأنواع؛ لكن في الحكمة المتعالية، يُطرح الإنسان على أنّه هو نوع متوسّط وعلى إثر الحركة الجوهرية يصير أنواعاً متعدّدة يقع الإنسان في ذيلها بحيث يجتمع فيه جميع الأجناس والفصول السابقة بما في ذلك فصل "الناطق" ويتقوّم بالفصل الأدنى وهو فصل الفصول.

يكون هذا المنظر الحكيم معقولاً ومفهوماً بالنسبة للحكيم، لكنّه عند العارف شاهداً ومشهوداً، بحيث تتجلّى من الآن في باطن بنيان أهل المعرفة حقيقة بعض الأفراد المذنبين في صورة حيوانية. وتقع قصّة الإمام السّجّاد عليه السلام ضمن قضية «ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج»[1] هي من هذا القبيل. كما أنّ القرآن الكريم وبعد تسفيهه لفريق ووصفهم كالتالي: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[2] فإنّه بعد ذلك يصفهم بأنّهم أدنى من الحيوانات: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[3] وفي هذا الإطار؛ أي الصورة الباطنية للملحدين والكفّار الكنودين والعصاة اللدودين والمجرمين العنودين والمنافقين اللجوجين تتجلّى في صورة حيوانات تتناسب مع حقيقة انحرافهم؛ وإذا ذكر المفسّرون ذيل الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾[4] حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بأنّ عدداً من الناس يُحشرون يوم القيامة في صورة حيوانات معيّنة وهذا لا يعني بأنّ المعاد هو ظرف "حدوث" هذه الصور الحيوانية، بل مفاد ذلك هو أنّ القيامة هي ظرف "ظهور" هذه الصّور بينما ظرف حدوثها إنّما هو الدّنيا. ومن هذا المنطلق، يتمكّن العرفاء من أهل الباطن منذ الآن من

١ . البحار، ج٩٦، ص٢٥٨.
٢ . سورة البقرة، آيه ١٣٠.
٣ . سورة الأعراف، الآية ١٧٩.
٤ . سورة النبأ، الآية ١٨.

مشاهدة باطن عدد من الناس في صورة حيوانات ضارية وأمثال ذلك.

وفي الإطار نفسه، يتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام عن أهل الدّنيا بهذا المعنى نفسه حيث يقول: «... إيّاك أن تَغترّ بما ترىٰ من إخلاد أهل الدنيا إليها وتَكالُبهم عليها، فقد نبّأك الله عنها... فإنّما أهلها كلابٌ عاوية وسباعٌ ضاريةٌ يهرّ بعضها علىٰ بعض...»[1]؛ بحيث يتجلّىٰ أهل الدّنيا في صورة كلاب عاوية. كما قال عليه السلام: «... نَعَمٌ مُعَقّلةٌ وأخرىٰ مهملةٌ قد أضلّت عقولَها وركبت مجهولَها...»[2]، بحيث يتجلّىٰ هؤلاء في صور حيوانات من ذوات الأربع بعضها مربوطة العقال والبعض الآخر مطلق العنان يسير في طريق التيه والضياع. كما قال عليه السلام فيما يخصّ أهل الفتنة من أهل الدنيا ما يلي: «يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة»[3]؛ بحيث يتجلّون في صور حمير برّية تعضّ بعضها البعض.

وكذلك، من خلال هذه الرؤية، ذكر أمير المؤمنين عليه السلام فيما يخصّ مدّعي العلم والعدل كذباً والدّعاة كذباً إلىٰ الهداية والقداسة: «قد تسمّىٰ عالماً وليس به... يقول: أقف علىٰ الشبهات وفيها وقع... فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدىٰ فيتبعه ولا باب العمىٰ فيصدّ عنه وذلك ميّت الأحياء».[4] المقصود من "القلب" ضمن هذا الحديث هو الرّوح الإنسانية وحقيقة كلّ شخص. كما أنّ المقصود من "الصّورة" هو الشكل الظاهري لا الصورة المصطلحة ضمن فنّ المنطق والحكمة. كما أنّ المراد من "الموت" إنّما هو الموت الحاصل عند فقدان ملكة العلم والعدل وعند تضييع الهداية والقداسة. والهدف من "الأحياء" هم العلماء العادلون

---

١ . نهج البلاغة، الرسالة، البند ٧٨.

٢ . المصدر السابق، بند ٨٠.

٣ . المصدر السابق، الخطبة ١٥١.

٤ . المصدر السابق، الخطبة ٧٨.

والمدّعون للهداية والقيادة بالحقّ. والمقصود من "الحيوان" هو الحيوانية التي تقع في طول الإنسانية الأوّلية وليس الحيوانية التي في عرضها.

للتوضيح، إنّ الموجود الذي يكون له إحساس ووهم وخيال ويكون فعله خاضعاً لإدراكه وحركته تستند إلى إرادته وإلى ميله، إمّا أن يكون إنساناً وإمّا أن يكون حيواناً آخر من قبيل الفرس أو الحمار أو الذئب أو... إذ إنّ كلّ حيوان عاديّ يكون نوعاً خاصّاً ويقع في مقابل الإنسان. والإنسان ضمن امتلاكه للعقل والفطرة بالباطن، وللوحي والنبوّة بالظاهر عالماً، إذا انحرف في مسيره عامداً، مرجّحاً ميوله وأهواءه الشهوانية والغضبية على الأمور المطلوبة الناشئة من العقل والوحي، فإنّه يكون قد غصب جميع المواهب الإلهية وقد اتبع طريق الباطل لتحقيق مطامعه السيئة بحيث لا يكون باطن هذه الأهواء والأميال القبيحة سوى صورة سيئة حيوانية.

بناء على ذلك، يكون هذا الشخص قد اتجه صوب الحيوانية رغم محافظته على العقل الإنساني الرائج، وعلى الفهم والشعور الآدمي الدّارج، ممّا يجعله يحيل حاله إلى ملكة، وعند ذلك، تكون بمنزلة مقوّم لهويّته.

وعلى هذا الأساس، يكون باطن هكذا متحرّك جوهر إنسان مائل نحو الحيوانية إلى أن تصل هذه الصفة المذمومة والميل القبيح بالتدريج إلى نصاب التقويم الوجودي فيكون فعلاً وواقعاً مقوّماً لهويته. في هذه الحالة، يكون إنساناً قد صار حيواناً خاصّاً من قبيل الذئب مثلاً. وعلى هذا الأساس، يوم القيامة والذي هو ظرف ظهور الحقائق في صورة ذئب حين يبعث الناس من نوم الموت فيدرك أنّ حقيقته ذئبية؛ أي يصدق عليه الفصل القبلي للإنسان الرائج كما يُحمل عليه الفصل البعدي المُكتسب: "فهو إنسان ذئب" ويكون له فرق أساسي مع الذئب الدنيوي؛ إذ إنّ ذئب الدنيا تكون صفة الإفتراس لديه متماهية مع خلقته الطبيعية ولا يمكن اكتسابها مع العلم والإرادة. لكنّ الإنسان الضاري والظالم يتحرّك عمداً نحو الطبيعة الذئبية فيحصّل هويّته

السيئة. وعلىٰ هذا الأساس، يصير ذئباً مع حفظ العقل العادي. ومن هذه الجهة، يكون مدركاً بالكامل هويته السابقة. وعليه، تكون الحيوانية المُكتسبة في طول الإنسانية العادية لا في عرضها.

والغرض من ذلك، هو أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام يرىٰ السير الباطني للأفراد ويشهد هويتهم الباطنية كما يشرح ذلك للناس؛ وإن كان عدد منهم منذ الآن لا يتمكّنون من كشف ما وراء الحجاب وما لم ينكشف لهم الغطاء لا يمكن لهم أن يطّلعوا علىٰ الغيب. فإنّه بعد أمد غير بعيد، سوف ينكشف الغطاء للجميع: «... و عمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور و ينتصف منك المظلوم»[١]، إلاّ أنّ علياً عليه السلام مثله مثل الأنبياء وأولياء الله المعصومين ومثلما تمّت الإشارة إليه سابقاً، يعتقد بالمعارف الدينية شهودياً ويصف ذلك للناس عرفانياً؛ مثلما قال هو نفسه عن أنّ إيمانه هو من سنخ الإيمان بالشهادة لا بالغيب: «ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب ووقف علىٰ الموعود، إيماناً نفىٰ إخلاصه الشرك ويقينه الشكّ»[٢]؛ أي أنّ إيماني بالمعارف الغيبية يتمّ بعد معاينتها لا بعد البرهان الحصولي والاستدلال المفهومي؛ أي أنّ اعتقادي بأصول المعارف الدينية من قبيل إيماني بولايتي وبإمامتي؛ فمثلما أنّ إيماني بولايتي وبإمامتي من قبيل الإيمان بالشهادة لا بالإيمان بالغيب، فإنّ إيماني بالأصول الدينية الأخرىٰ هي من قبيل الإيمان بالشهادة لا من سنخ الإيمان بالغيب.

حين تكون معرفة وعقيدة علي عليه السلام حول المعارف الغيبية من سنخ المعرفة الشهودية، فإنّ إشرافه علىٰ الدّنيا وأمثال ذلك سوف يكون حتماً من قبيل الإدراك الحضوري. وعلىٰ هذا الأساس، يشهد عليه السلام حقيقة الدّنيا وباطن جميع ما فيها؛ تماماً

---

١ . نهج البلاغة، الرسالة ٥٣، البند ١٥٠.

٢ . المصدر السابق، الخطبة ١١٤ البند ٣.

مثلما وصف هو نفسه عليه السلام أولياء الله حيث قال: «إنّ أولياء الله هم الّذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها واشتغلوا بآجلها إذ اشتغلوا بعاجِلها... بهم علم الكتاب وبه علموا وبهم قام الكتاب وبه قاموا... »[1]؛ إذ إنّهم هم مظاهر العلم الإلهي كما أنّهم يحيطون علماً بباطن الأشياء مثلما يعلمون ظاهرها: «خَرَقَ علمه باطنَ غيب السترات وأحاط بغموض عقائد السريرات».[2]

إنّ باطن الدّنيا هو جيفة وميتة، كما أنّ أهل الدّنيا ومحبّيها سوف يُحشرون معها. وعلى هذا الأساس، يكون علي بن أبي طالب قد أحاط علماً بباطن الدّنيا حيث قال: «والدنيا... ثمرها الفتنه وطعامها الجيفة»[3] إلى جانب إحاطته علماً بظاهرها حيث: «وخرجت الروح من جسده فصار جيفةً بين أهله قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه... فأسلموه فيه إلى عمله وانقطعوا عن زَوْرَته».[4] إنّ هؤلاء الذين هم أهل دنيا، يكونون غارقين في الحياة المادّية، كما أنّ ظاهرة الجيفة تفسّر بالكامل فكر وميول هؤلاء. وبما أنّ باطن الشخص هو الذي يؤمّن فكره وميوله، فإنّ هؤلاء هم في الحقيقة عبارة عن جيفة متحرّكة وهم الآن جيفة عمودية لكن بعد خروج الرّوح وبرودة الجسد، يصبحون في صورة جيفة أفقية مرمية فوق الأرض حيث قال حول ذلك: «... أقبلوا على جيفةٍ قد افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبّها ومن عشق شيئاً أعشى (أعمى) بصره وأمرض قلبه»[5]، «... ويتكالبون على جيفةٍ مريحة وعن قليل يتبرّأ التابع من المتبوع...».[6]

---

١ . المصدر السابق، الحكمة ٤٣٢.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨ البند ٢.

٣ . المصدر السابق، الخطبة ٨٩، البند ٢.

٤ . المصدر السابق، الخطبة ١٠٩، البند ٢٦.

٥ . المصدر السابق، الخطبة ١٠٩، البند ١٤.

٦ . المصدر السابق، الخطبة ١٥١، البند ٧.



إنّ لقبح الدّنيا جهات متعدّدة أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام ضمن درر كلامه وفي مواقع متعدّدة، حيث قال حول لسع الدّنيا وحول أهل الدنيا: «مَثَلُ الدنيا كمثل الحيّة ليّن مسّها والسمّ الناقع في جوفها يهوي إليها الغِرُّ الجاهل ويحذرها ذو اللّب العاقل».[١]
ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار هو إمكان أن تكون بعض التعابير المذكورة كلامية أو حكمية، لكنّ ما يتناسب أكثر مع سائر التعابير العرفانية لعلي بن طالب عليه السلام وما ينسجم أكثر مع السيرة والسنّة الشهودية لأمير المؤمنين عليه السلام إنما هو جانبها العرفاني.
إنّ الفصل المقوّم للهوية الباطنية لأهل الدّنيا المتّصفين بالجيفة هو الميتة النتنة والذي يوجد أثره من الآن في باطنهم ثم سريعاً ما يظهر حال الموت. هؤلاء الذين يخافون من الموت، هم في الحقيقة يخافون من ظهور باطن حياتهم ذات سنخية جيفة وإثر التحليل العقلي يُعلم أنّه ينبغي عليهم أن يخافوا من حياتهم الحالية لا من الموت.

خلاصة القول هو أنّ المعيشة الضنكة والاضطراب المستمر والغضب الدائم والفرار بكلّ اتّجاه يتأتى من الباطن الكدر والذي تكون آثاره مشهودة بينما يكون هو مستوراً.

* * *

---

١ . المصدر السابق، الحكمة ١١٩.

الفصل الخامس:

الحياة العرفانية للإمام علي عليه السلام من منظار أهل البيت عليهم السلام

أفضل طريق لمعرفة علي عليه السلام

تتحقّق أفضل معرفة لشخص ما أو شيء محدّد عبر تعريفه بأفضل معرِّف. وليس هناك أفضل من القرآن ومن العترة للتعريف بعلي بن أبي طالب عليه السلام؛ أمّا تعبير القرآن الكريم حول علي بن أبي طالب عليه السلام بالولاية فهو خارج عن دائرة تحليل هذه الرسالة؛ إذ إنّ تحليل عنوان ولاية علي بن طالب عليه السلام في القرآن الكريم أي الولاية التي هي روح كمال الدّين وأساس تمام النّعمة وسبب لرضى الله بأن يكون الإسلام لنا ديناً.

ما يمكن طرحه هنا بإجمال هو تعبير العترة الطاهرة وأهل بيت العصمة والطّهارة والذين يكون الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله المصداق الكامل لهكذا أسرة وعائلة طيّبة وطاهرة ومعصومة؛ باعتبار أنّهم قد عرفوا علي بن أبي طالب عليه السلام مثلما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام قد عرف هذه الذوات النورانية. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما عرف الله إلاّ أنا وعلي وما عرف علي إلاّ أنا والله وما عرفني إلاّ الله وعلي»[1].

---

١ . مختصر بصائر الدرجات، ص١٢٥؛ مناقب ابن شهر آشوب، ج٣، ص٢٦٧؛ إرشاد القلوب، ص٢٠٩.

١. تعريف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

إنّ أقوال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حول جامعية أمير المؤمنين عليه السلام هي كالتالي: من أراد علم آدم وفهم نوح وحلم ابراهيم عليه السلام وزهد يحيى بن زكريا وبطش وشجاعة موسى عليه السلام فليطلب علي بن أبي طالب عليه السلام»[١]. هذا، وقد ورد شبيه هذه الرواية جملة من الأخبار التي ورد فيها ذكر أسماء بعض الأنبياء أولي العزم[٢]. كما ورد عنه صلى الله عليه وآله ما يلي: «منزلة علي عليه السلام مني مثل منزلتي من الله»[٣]. كما قال صلى الله عليه وآله حول كون علي من نفسه ما يلي: «ذاك نفسي»[٤] ممّا يعطي معنى دقيقاً لمنزلة أمير المؤمنين عليه السلام؛ كما سيتّضح تناظر علي مع الكعبة[٥] ومع سفينة نوح[٦] وهو ناظر إلى الدرجات النازلة والمتوسطة لعلي عليه السلام، لا إلى درجته الرّفيعة. هذا، وإن كان يمكن لوصف علي بن أبي طالب عليه السلام بأنّه "عمود الدّين"[٧] أن يعبّر عن المقام العلوي الأسمى؛ مثلما ورد عنه عليه السلام أنّه: "قسيم الجنّة والنّار"[٨] والتي تتحدّث عن عمق وسمك خاصّين إلى جانب وصفه عليه السلام بأنّه "باب مدينة العلم"[٩] و"باب مدينة الحكمة" وهو ما يكشف عن العظمة الخاصّة له صلى الله عليه وآله. خصوصاً تعبير الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عنه بمدينة الحكمة كما أطلق عليه

---

١. البداية والنهاية، ص٧، ح٣٥٧.

٢. البحار، ج١٧، ص٤١٩ و ج٣٩، ص٣٥ و ٣٨ و ٨١.

٣. دخائر العقبى، ص١٢٠.

٤. الإختصاص، ص٢٢٣.

٥. العمدة، ص٢٨٥.

٦. الخصال، ص٥٧٣، ح١.

٧. مناقب ابن شهر آشوب، ج٣، ص٧٦.

٨. الخصال، ص٤٩٦، ح٥.

٩. البحار، ج٣٩، ص٢١٠.



تسمية الجنّة حيث قال: «يا علي أنا مدينة الحكمة وهي الجنّة وأنت يا عليّ بابها و كيف يهتدي المهتدي إلى الجنّة ولا يهتدى إليها إلاّمن بابها»[1] وبما أنّ علياً عليه السلام هو باب مدينة الحكمة، والحكمة حالياً هي الجنّة لذا، فإنّ علياً عليه السلام يكون حالياً في الجنّة. وعلى هذا الأساس، قد نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: "علي في الجنّة" أي أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام حالياً هو في الجنّة[2] لا أنّه لا يرد الجنّة إلاّ يوم القيامة.

إنّ ما أوردناه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حول أمير المؤمنين عليه السلام قليل من كثير وجمّ غفير من الأخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله يمكن للمتتبّع الماهر أن يحيط بها بحيث يتيسّر له أن يعمل بمقتضاها.

٢. وصف علي عليه السلام نقلاً عن لسانه

أمّا ما نقلناه بحسب الضرورة من أقوال لعليّ عليه السلام يتحدّث فيها عن نفسه، فإنّه إمّا يحكي بجميعه بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن تماهي علي عليه السلام مع القرآن الكريم ومع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد استثناء مقام النبوّة التشريعي ومزايا الشريعة المنبثقة عن الرسالة التشريعية؛ من قبيل "أنا القرآن النّاطق" و"أنا كلام الله النّاطق" و"ما لله نبأ أعظم منّي" و"ما لله آية أكبر منّي" أي أنّ أكبر خبر ذكر في عالم الكون الإلهي وأكبر آية وعلامة إلهية هي علي، كما لا يوجد مخلوق في عالم الإمكان أكبر منّي. لكن سوف يتّضح، إثر قرينة خضوع علي عليه السلام في ساحة القدس النبوي، كون حصر هذا النحو من الأحاديث أمراً إضافياً، وأمثال: أعطيت سبع أشياء لم يعط أحد مثلها: ١- علّمت الأسماء ٢- الحكومة بين العباد ٣- تفسير الكتاب ٤- تقسيم الغنائم بالسوية بين بني آدم ٥- ليس هناك علم لم يعلّمنيه رسول الله صلى الله عليه وآله ٦- لم أعط حرفاً

---

١ . أمالي الصدوق، ص٤٧٢، ح٦٣٢.

٢ . سنن أبي داود، ج٤، ص٢١٢، ح٤٦٤٩.

إلاّ ويفتح منه ألف حرف ٧- أعطيت زوجتي مصحفاً وكتاباً خاصاً من الله ورسوله لم يعط أحد قبلها مثله.

كلام آخر نقله علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله حول علي نفسه حيث قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يا علي مَثَلُك في أمّتي مَثَل ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، من أحبّك بقلبه فكأنّما قرأ ثلث القرآن و من أحبّك بقلبه وأعانك بلسانه فكأنّما قرأ ثلثي القرآن ومن أحبّك بقلبه وأعانك بلسانه ونصرك بيده فكأنّما قرأ القرآن كلّه».[1]

مثلما مرّ ذكره سابقاً، فإنّ أفضل تناظر وتقييم للإنسان الكامل إنّما هو تماهيه مع القرآن الكريم. ما ورد في هذا الحديث النبوي المروي من طريق علي عليه السلام نفسه هو أنّ ولاية علي عليه السلام هي عِدل الوحي الإلهي. إنّ سورة التوحيد: "قل هو الله أحد" هي بمثابة ثلث القرآن الكريم. هذا، وقد وردت الإشارة إلى سرّ هذا التثليث في المباحث التفسيرية والعلوم القرآنية.

كلّ من تلا هذه السورة مرّة واحدة فكأنّه قد تلا ثلث القرآن الكريم وكلّ من تلاها مرّتين أو ثلاث مرّات فكأنما تلا ثلثي أو كلّ القرآن المجيد. هذا، وقد يمكن تفسير هذا التثليث بالعلم الحصولي أو الحضوري بمعانيه وكذلك يمكن تسرية ذلك إلى التوصّل العملي لمفاد ومحتوى الآية.

إنّ من يذوب بتمام وجوده في الولاية العلوية، ومن يبادر بالدفاع عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بقلبه ولسانه وتمام جوارحه، وأن يكون ولائياً من جميع الجهات فكأنّما يكون في خدمة جميع ما في القرآن الكريم، ويكون مؤمناً بجميع مضامينه، وممتثلاً لتمام أوامره ونواهيه. أمّا من لا يتحرّك بتمام وجوده حول محور الولاية بحيث يعمل بالتبعيض في هذا المجال، فإنّه سوف يجيز العمل بالتبعيض في مجال الأحكام والإحاطة

---

١ . الخصال، ص٥٧٢، ح١، الباب السبعون.



بالحكم والاعتقاد بأصول ومباني القرآن المجيد، بحيث يقبل ببعض هذه الأحكام ويُحرم من اتباع البعض الآخر.

إنّ التثليث أو التربيع أو التخميس أو التسديس أو... مرتبط بكيفية القبول أو النكول ومقدار النصرة. كما يُلحظ أنّ الولاية خلافة إلهية تامّة، أي أنّ الإنسان الكامل سوف يكون دوماً شرطاً للورود في حصن التوحيد وسور الاعتقاد المستحكم بألوهية الله سبحانه؛ مثلما يستظهر من الحديث المعروف "بسلسلة الذهب"[١]. وعلى هذا الأساس، وقع كلام حول تنظير ولاية الإنسان الكامل من آية سورة التوحيد والإخلاص، لا من آيات السور الأخرى رغم أنّ صدر وساق القرآن المجيد وحي ونور إلهي خاص.

٢. علي عليه السلام من منظور فاطمة وسائر أهل البيت عليهم السلام

لقد وردت أخبار كثيرة عن الصّديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله عليها حول علي عليه السلام. هناك عبارة قصيرة وردت عن سيدة نساء العالمين حول الشهود العلمي العلوي مفاده أنّه وإن كان الوحي التشريعي من مختصّات الرسول الأكرم لا يشاركه فيه أحد، إلاّ أنّه يمكن تصوّر الوحي الإنبائي والتسديدي والتعريفي و... بالنسبة للإنسان الكامل المعصوم. كما إنّه لا إشكال في نزول الملك الأمين على القلب العلوي المطهّر.

لقد وصفت السيدة الزهراء علي بن أبي طالب عليه السلام كالتالي: «فإنه قواعد الرسالة ورواسي النبوة و مهبط الروح الأمين والبطين بأمر الدين في الدنيا والآخرة... »[٢]؛ ويشبه هذا الكلام ما ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام حيث قال: " لقد كان علي بن

---

١. البحار، ج٤٩، ص١٢٣.

٢. أمالي الطوسي، ص٣٧٤، ح٨٠٤؛ الإحتجاج، ج١، ص٢٨٦، ح٥٠.

أبي طالب عليه السلام يعمل بكتاب الله وسنّة النبي. وإن حدث أمر لم يأت في الكتاب ولا في سنّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تبيين صريح له فإنّ الله تعالى يلهمه إلهاماً خاصّاً وهذا من المعضلات".[1] إنّ جميع التعابير المذكورة تتضمّن لون العلم الحضوري والإطّلاع الشّهودي لعلي عليه السلام ممّا يستلزم أنّ حياة علي عليه السلام هي حياة عرفانية وشهودية لا أنّها حياة حكمية أو كلامية.

بعد ذكره لثلّة من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، أشار الإمام الصّادق عليه السلام إلى أنّ الشخص الذي يكون معروفاً لدى علي عليه السلام يكون من أهل الجنّة ومن يكون مجهولاً لدى الساحة العلوية عليه السلام يكون من أهل النار، وجواباً لسائل حول ما إذا كان هناك سند قرآني لذلك، قال عليه السلام: "علي بن أبي طالب مصداق المؤمنين الذين يكونون على علم بأعمال العباد"[2]. ومن الواضح أنّ مصداق الآية ﴿فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[3] إنّما هو من يكون مطّلعاً على أفعال العباد، ومن يكون له سعة العلم الشهودي الذي ينشأ من التعليم الإلهي، كما يكون شهوده على أعمال الخلق من هذا القبيل أيضاً.

إذا كان الإمام الصّادق عليه السلام يعتبر أنّ "الولاية العلوية" أعلى وأفضل من "الولادة العلوية" حيث قال في هذا الخصوص: «ولايتي لعلّي بن أبي‌طالب عليه السلام أحبّ إليّ من ولادتي منه لأن ولايتي له فرضٌ وولادتي منه فضلٌ».[4] وضمن لحاظ هذه المعارف الشهودية العلوية نفسها والتي تضمنّها حديث أمير المؤمنين عليه السلام حين

---

١ . بصائر الدرجات، ص٢٣٤، ح١.

٢ . تفسير العياشي، ج٢، ص١٠٨، ح١٢١.

٣ . سورة التوبة، الآية ١٠٥.

٤ . فضائل، ابن شاذان، ص١٠٦؛ البحار، ج٣٩، ص٢٩٩، ح١٠٥.



قال: «... عُلِّمتُ البلايا والقضايا وفصل الخطاب».[1] وفي السياق نفسه، أشار أبو ابراهيم، الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام إلىٰ ولايته للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام واعتبرها متمّمة ومكمّلة بل هي سبب لثواب الأعمال الصّالحة والزاكية. وقد ورد ضمن بعض الأدعية الخاصّة ما يلي:

«إلهي... قلتَ وقولك الحق... يوم ندعوا كل أناسٍ بإمامهم... ذلك يوم النشور، إذا نفخ في الصور، وبعثر ما في القبور، اللّهم إنّي أقرّ وأشهد وأعترف ولا أجْحد وأسرّ وأظهر وأعلن وأبطن بأنّك أنت الله لا إله إلاّ أنت، وحدك لا شريك لك وأنّ محمداً عبدك ورسولك وأنّ علياً أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين... وإمام المتقين... إمامي ومَحَجّتي ومَنْ لا أثق بالأعمال وإنْ زَكَتْ ولا أراها مُنجيةً لي وإن صَلُحت إلاّ بولايته والائتمام به و الإقرار بفضائله والقبول من حَمَلَتِها والتّسليم لرواتها».[2]

ما ورد عن الإمام الهادي علي بن محمّد عليهما السلام في وصف علي بن أبي طالب عليه السلام من أنّه:

«قبلة العارفين»[3] وإن لم يكن لها ظهور في العلم الشهودي والمعرفة الحضورية، إلاّ أنّها لا تخلو من اعتبار ذلك.

والغرض من ذلك هو أنّ التعبير الرّائج لأهل العصمة والطهارة عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام من أنّه "عيبة" وصندوق علم الله وعلم رسول الله، هو شاهد علىٰ العلم الشهودي لعلي عليه السلام فيما يخصّ المعارف الإلهية. بالنتيجة، يكون إيمان علي عليه السلام بأصول وفروع الدّين هو من سنخ الإيمان بالشهادة لا من سنخ الإيمان بالغيب وحياته عرفانية وشهودية لا هي حياة حكيمة غيبية.

---

١ . أمالي الطوسي، ص٢٠٦، ح٣٥٢.

٢ . مهج الدعوات، ص٢٨٢.

٣ . مصباح الزائر، ص٤٧٧.

مدار الحقّ مع عليّ

مطلب آخر مأثور عن أهل بيت العصمة عليهم السلام يمهّد الأرضية لتبيين الحياة العرفانية العلوية وهو كما يلي: «عليّ مَعَ الحقّ والحق مع علي، يدُور معه حيثما دار»[١]؛ أي أنّ علي عليه السلام على حقّ ويدور حول محور الحقّ فيكون دوماً على حقّ وحيثما يكون الحق، يكون علي عليه السلام معه، أو أنّ الحقّ في يدور في مدار علي عليه السلام، وحيثما كان عليّ عليه السلام أمكن الكشف عن الحقّ هناك.

ضمن شرح كون ضمير "يدور" يعود على الحقّ وضمير" دار" يعود على علي عليه السلام أو بالعكس، وإثر تحليل ميسّر، ومن دون اتضاح ذلك، لا يمكن أن تتضح مسألة دوران علي عليه السلام حول مدار الحقّ أو دوران الحقّ حول مدار علي عليه السلام.

لقد ذكرت عدّة معاني "للحقّ" يمكن هنا أن نذكر اثنين منها وقد يمكن إرجاع سائر المعاني إلى هذين المعنيين. هذا، ونشير إلى وجود جامع مشترك بين هذين المعنيين ممّا يدفع توهّم وجود شبهة الإشتراك اللفظي.

المعنى الأوّل للحقّ هو "الهوية المطلقة لا بشرط المقسمي" والتي هي عند أهل المعرفة عين الذّات الإلهية. وهذا النحو من الحقّ ليس له ما يقابله أبداً؛ إذ إنّ هذا الحقّ إنما هو الحقيقة المطلقة واللامتناهية ولا يقابلها غير العدم المحض و"ليس" الصّرفة. هذا، وإن أطلق على هذا المقابل عنوان "الباطل" فحتماً يكون تقابله مع الحقّ من سنخ تقابل التناقض، لا العدم والملكة؛ إذ إنّ الباطل هنا هو بمعنى العدم المحض. والعدم الصّرف ليس له شأنية أو صلاحية أيّ أمر مطلقاً. وعليه، فإنّ تقابله مع الحقّ يكون من صنف تقابل النقيضين لا غير ذلك: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن

---

١ . موسوعة الأمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ج٢، ص٢٣٧.



﴿دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[١]. فالحقّ بهذا المعنى مثلما أنّه لا مقابل له فلا "معية" له ولا مصاحب له؛ أي لم يكن أبداً شيء مع الله ولن يكون معه شيء، والآن نفسه، يكون الله مع جميع الأشياء وجميع الأشخاص؛ إذ كلّ ما يفترض أن يكون ممكناً وكلّ ممكن محتاج إلى الواجب ويكون معلولاً له وبعده. وعليه، لا يصحّ أن نفترض موجوداً مع الله. وبناء على ذلك، يكون الله حقّاً محضاً ولا يكون مع الحقّ الصّرف شيئاً ولن يكون.

المعنى الثاني للحقّ هو الظهور الإلهي والفعل الصّادر عن الله والحكم الناشئ من إرادة مبدأ عالم الكون. ولهذا الحقّ ما يقابله وهو الباطل وتقابلهما من سنخ تقابل العدم والملكة، لا تقابل التناقض؛ إذ إنّ الباطل في هذا الفرض هو أمر له صلاحية أن يكون حقّاً، وإن كان حالياً يفتقد تلك الصّفة. مثلما أنّ بعض الأمور لا هي حقّ ولا هي باطل؛ من قبيل معاني المفرد، نظير معنى "شجر" باعتبار أنّها لوحدها لفظ مفرد لا يشكّل قضية كما يكون إدراكه من سنخ التصوّر لا التصديق فلا يكون مصداقاً لا للحقّ ولا للباطل. سواء أكان الحقّ والباطل بلحاظ العقل النظري والعلم أم كانا بلحاظ العقل العملي وميزان القيم.

طبقاً لهذه الشواهد، يكون تقابل الحقّ والباطل بالمعنى المذكور، من قبيل تقابل العدم والملكة، لا تقابل التناقض. فكلّ حقّ (بالمعنى الثاني) أعمّ من أن يكون شخصاً أو شيئاً هو موجود إمكاني وصادر وظاهر عن الله. كما إنّ الآية الكريمة ﴿الْحَقُّ مِن رَبِّكَ...﴾[٢] ظاهرة في أنّ كلّ نحو من الحقّ بالمعنى الثاني هو من الله؛ أي هذا النحو من الحقّ لا يكون مستقلاً حتى يستغني عن مبدأ الصّدور والظهور ولا يكون غير الله

---

١ . سورة لقمان، الآية ٣٠.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٦٠.



حتى لا يتعلّق به، بل هو حتماً محتاج وغير غني، كما إنّه بالضرورة محتاج إلى الله لا إلى غيره.

فهذا الحقّ المذكور إمّا يكون صادراً أوّلاً وإمّا أحد لوازمه؛ نظراً إلى أنّ الصّادر الأوّل من المبدأ الإلهي إنّما هو الخليفة التّام والإنسان الكامل و"المختصر الشريف" و"الكون الجامع" والذي هو نفسه مظهر لإسم الله وكلّ ما يفترض في هذه المرتبة إمّا عين هويته وإمّا هو أحد لوازم تحليل هويته لا ماهيته. ويمكن ضمن نشأة الكثرة، لحاظ اللازم مع الملزوم حيث يمكن الإحاطة به في مدار الملزوم وايجاده في محور الملزوم.

فهذا الحقّ المذكور، يكون في نشأة الكثرة إمّا علمياً وإمّا خُلقياً وإمّا عملياً. فإن كان من سنخ العلم والفكر، فإنّه طبق اتحاد العلم والعالم والمعلوم بالذات، يكون متعلّقاً بهويّة العالم والمفكّر. وإن كان خُلُقاً وميلاً، فإنّه يعود إلى هوية المتخلّق وصاحب العزم. وهكذا انسان محقّق ومتحقّق، يكون في المجتمع بلحاظ التصويب العلمي والعزم العملي من أولي العزم العادي؛ أي أنّ سائر الأفراد إن أرادوا معرفة العقيدة الحقّة أو الأخلاق القويمة أو السلوك الصّحيح فإنّه ينبغي عليهم مراجعة هذا الإنسان الكامل الذي هو الخليفة الكامل لله تعالى (من دون واسطة أو بالواسطة) كما يمكنهم تحديد الحق من الباطل إثر النظر في عقيدته وخُلقه وأفعاله.

بناء على ذلك، ينبغي تقييم أي علم صائب أو خلق وعمل صالح مقارنة مع علم وعمل الإنسان الكامل والمعصوم؛ أي أنّ الحقّ بالمعنى الثاني ضمن نشأة الكثرة يدور في مدار الإنسان الكامل والمعصوم لا قبله بحيث يكون الإنسان المعصوم في مرحلة من المراحل السّابقة لعالم الإمكان فاقداً للحقّ بالمعنى الثاني ولا بعده حيث يكون الإنسان المعصوم في رتبة من المراتب اللاحقة لمنطقة الإمكان فاقداً للحقّ، بل ينبغي أن يكون مرافقاً له ومعه.



ضمن هذا الكلام، نكون قد أجبنا بشكل غير مباشر على سؤال مقدّر ومطوي مفاده متى يكون المعيار الخاصّ معتبراً، هل في السبق أم في اللحوق أم في المعيّة؟ أي حين نقول بأنّ هناك معية بين "ألف" و"باء" يبرز هنا سؤال مقدّر مفاده: فيما تتمثّل المعية بينهما؟ وما هو معيار المعيّة بينهما؟ إذ يكون أحياناً ملاك المعية خارجاً عن الطّرفين، من قبيل معية جسمين في المكان بحيث يكون ملاك معيّتهما هو مكان واحد. ونظير ذلك أيضاً معية حدثين في زمان واحد بحيث يكون ملاك معيتهما زمان واحد. فيما يكون أحياناً ملاك المعية ضمن الطرفين وأحدهما بحيث يكون أحدهما بمنزلة الأصل فيما يكون الآخر فرعاً له فيكون هذا الأصل ملاكاً لهذه المعية؛ نظير معية الزمان مع أمر واقع في الزمان بحيث يكون معيار المعية هنا هو الزمان نفسه، ويكون هذا الأمر الواقع في الزمان مرافقاً للزمان نفسه. إنّ معيار معية الحقّ أو الخلق أو العمل مع الإنسان الكامل والمعصوم هي الهوية الأصيلة للإنسان الكامل المعصوم لا أنّها خارج هذا الإطار؛ وإن كان معيار أحقية أيّ شخص أو شيء يعود إلى ربطه الوجودي مع الهوية الإلهية المطلقة والتي هي حقّ محض، وعلى إثر الإطلاق الذاتي وعدم تناهيه، لا يكون له مقابل ولا معية له.

ومن خلال هذا العبور السريع، يتضح لنا معنى «عليّ مع الحق والحق مع عليّ»[1] بأنّ الحقّ الفعلي (لا الحقّ الذاتي) يدور حول مدار علي عليه السلام والذي هو ضمن مقام ظهور وفعل الله حقّ ممثّل ومنشأ لظهور العلوم الصّائبة والأخلاق والأعمال الصّالحة.

هناك جملة من النقاط يمكنها أن تبيّن وتقرر التحليل العقلي لمعية علي للحقّ وتشرح صدور ومشارب قلوب أهل الولاية هي كالتالي:

---

١ . موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ج٢، ص٢٣٧، ح٧٢٣.



١. الخطبة البليغة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في غدير خمّ حال تنصيب علي ابن أبي طالب عليه السلام حين قال: «... اللهمّ أدِر الحق معه حيث دار»[١]؛ بحيث يكون علي عليه السلام مداراً ومحوراً للحقّ؛ فأينما يكون علي عليه السلام حاضراً في المجالين العلمي والعملي، يكون الحقّ مرافقاً له بحيث لا يفترقان عن بعضهما. كما أنّ من يصاحب عليّ يكون الحقّ إلى جانبه مثلما يكون علي رفيقاً له. لا أنّه يعني اللهم اجعل علي تابعاً للحقّ بحيث يكون الحقّ متمركزاً في مكان آخر بحيث يكون علي بن أبي طالب عليه السلام مطالباً باتباع ذلك المركز.

٢. كان علي بن أبي طالب عليه السلام مارّاً حين قال رسول الله صلى الله عليه وآله مرّتان: «الحق مع ذا... ». فقال أبو ذر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «عليٌّ مع الحقّ والحقّ معه وعلى لسانه والحقّ يدور حيثما دار عليٌّ»[٢].من هنا، يتّضح الفرق بين محورية حقّ الآخرين مثل عمار بن ياسر مع محورية علي في الحق؛ إذ إنّهم يدورون حول مدار الحقّ فيما يدور الحقّ حول علي عليه السلام وبالنتيجة، يدور جميع أهل الحقّ وحماته وأتباعه حول مدار علي بن أبي طالب ويستمرّون على ذلك.

سهولة التواصف وصعوبة التناصف

يتّضح مما مرّ ذكره، أنّ سبب سهولة الحديث عن علي بن أبي طالب عليه السلام ووفرة الآثار التي تناولت هذه الشخصية العظيمة التي تمثّل محور الحقّ بل هي هوية الحقّ وكلّ حقّ ممثّل وعدل مجسّد وإنصاف مجسّم وحريّة ممثّلة فإنّ لهذه الشخصية باعاً كبيراً وحظّاً وفيراً في هذا المجال؛ مثلما أنّ اتّباع علي والتأسّي بسيرته وسنّته عليه السلام وتحمّل المشاق في الاستقامة على الصّراط المستقيم باعتبار أنّ الالتزام باتباع الحقّ وعدم مفارقة

١ . المصدر السابق، ص٢٣٨، ح٧٢٥.

٢ . البحار، ج٣٨، ص٢٨.



العدل وملازمة الإنصاف أمر صعب مستصعب. إنّ هاتين الخصيصتين، أي سهولة الوصف وصعوبة الإنصاف من الخصائص البارزة للحق والعدل والإنصاف والتي يعبّر عنها أحياناً في النصوص الدينية بأنها "سيد الأعمال"[1]. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حول سعة وصف الحقّ وضيق الاتّصاف به كما يلي: «فقد جَعَلَ الله سبحانه لي عليكم حقّاً بولاية أمركم ولكم عَلَيّ من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف...»[2] إنّ حقّ الإمام على الأمّة وحقّ الأمّة على الإمام من وجوه الحقّ المطلق ومن أنحاء وأقسام الحقّ الفعلي لله تعالى؛ إذ هناك عدّة شواهد علمية وشؤون عملية لا تحصىٰ للحقّ. هناك طرق متعدّدة مثل العلل والعلائم واللوازم والملزومات والملازمات والمقارنات والآثار الدخيلة في تحقّق الحقّ والآثار السلبية المؤثرة في تخلّف هذا الأمر؛ مثلما أنّ محبوبية الحقّ الفطري تنسحب على جميع النّاس.

وعلى هذا الأساس، كانت دائرة الكلام والكتابة حول هذا الموضوع واسعة، إلاّ أنّ تحقّق ذلك والإتّصاف بالإنصاف بعد وصفه وتعديل القوى من جهة وضبط الغريزة الجامحة من جهة أخرى واختيار النواة المركزية للجذب والدّفع من جهة ثالثة وأخيراً وأن يكون مصداقاً للآية الشريفة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[3] وتجاوز العقبة الكؤود والتي لا يكون بها عمل المذنب كنوداً، وعلى هذا الأساس يكون الوصف سهلاً ميسوراً بينما يكون الإتصاف بها بإنصاف أمراً صعباً وبهذا القدر الذي يكون الكلام عن هذا الأمر سهلاً ميسوراً فإنّ التحلّي بها والدوران في فلكها يعدّ أمراً في غاية الصعوبة، وبما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام محور الحقّ كما إنّ

---

١ . البحار، ج٧٢، ص٣٤.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦ البند ٢.

٣ . سورة النازعات، الآية ٤٠.

الحقّ يدور حول هذا الإنسان الكامل والمعصوم عليه السلام فإنّ تدوين وتصنيف وتأليف كتاب حول علي بن أبي طالب عليه السلام إلى جانب الكلام عنه أو التدريس أو التبليغ أو الإرشاد الكلامي حول المآثر العلمية والآثار العملية لهذه الشخصية أمر سهل لكنّ تحقيق الحقّ العلوي والتخلّق بالخلق العلوي والإستنان بالسنّة العلوية والحركة والسير في مسير السيرة العلوية عليه السلام من أصعب الأمور. وإثر تأمّل يسير، يكفي الإذعان والقبول بسهولة الوصف المذكور وصعوبة الإتصاف المشار إليه.

هذا، ونشير إلى أن المقصود من سهولة وصف علي عليه السلام هو سهولة الحديث والكلام حول جملة من الأمور من قبيل الملكات الأخلاقية والآداب الكريمة والسلوك الحليم والرحيم لعلي، وإلاّ فإنّه من الصّعب الحديث عن دائرة «سلوني قبل أن تفقدوني»[1] وعن منطقة «عيبة علم الله»[2] وسائر الملكات العلمية العلوية الحاكية عن علم الغيب والعلم اللدني وشهود الربّ وشهود الأسرار ورموز المعاد وشهود عقائد وأخلاق وأعمال جميع البشر؛ إذ ظلّ مقام «ينحدر عنّي السيل ولا يرقي إلي الطّير...»[3] يكون مانعاً من أي صعود معنوي لأعلام الحكمة والكلام، كما يكون أيضاً ممتنعاً عن أمهر غواصي بحر العرفان والشهود؛ بحيث يكون أهل النظر ممنوعين وكذلك أصحاب البصر والبصيرة محجوبين؛ إذ إنّ صاحب النظر يظلّ على الإيمان بالغيب وأمّا صاحب البصر وإن كان يمكنه أحياناً أن يؤمن بالشهادة إلاّ أنّه في أغلب الموارد يكون محروماً من شهود المعارف الغيبية أوّلا وثانياً، ضمن موارد الشهود، يكون محروماً من نعمة العصمة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩، البند ٥.

٢. البحار، ج٩٧، ص٣٧٨.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٣، البند ١.



ومن هذا المنطلق، لا يمكن لأيّ أحد أن يتحدّث عن أوج العروج العلوي أو أن يحقّق شيئاً من صفاتها؛ فمثلما أنّ الحقّ المذكور في الخطبة المشار إليها هو حقّ إجرائي وعملي ومن الحقوق المتقابلة بين الإمام والأمّة، وليس حقّاً منيعاً أعلىٰ من أن يتحقّق، بل حتّىٰ التحقيق حوله أمر صعب. وليس الإتّصاف به متعسّر فحسب، بل إنّ وصفه أيضاً ليس بالأمر السهل.

وعليه، فإنّ الغرض من ذلك هو القول بأنّ معرفة علي بن أبي طالب عليه السلام لا من جهة كونه يدور حول الحقّ فحسب، بل إنّ الحقّ كذلك يدور معه وهو أمر صعب جدّاً. ومثلما تمّت الإشارة إليه سابقاً فإنّ علياً عليه السلام لم يعرفه غير الله سبحانه ورسوله الأكرم صلى الله عليه وآله[1] وبما أنّ معرفته معرفة صحيحة أمر صعب، فإنّ وصفه والتحقيق حوله وشرح هوية مدار الحقّ لن تكون ميسورة لأيّ كان.

خلاصة الكلام، ما صدر عن العترة الطاهرة عليهم السلام والذين هم عِدل القرآن الكريم حول علي بن أبي طالب عليه السلام، يدلّ علىٰ نحو المطابقة أو التضمّن أو التلازم علىٰ الشهود العلمي لدىٰ علي عليه السلام بالنسبة للمعارف الإلهية. كما أنّ إيمان الإنسان الكامل والمعصوم الشاهد بالعقائد الدينية، هو من سنخ الإيمان بالشهادة وليس الإيمان بالغيب كما أنّ حياته حياة عرفانية وليست حياة حكمية أو كلامية.

* * *

---

١ . إرشاد القلوب، ص٢٠٩.

الفصل السّادس:

الحياة العرفانية للإمام علي عليه السلام من منظار رجال العلم

الإعتراف بالقصور

هناك انسجام وتناغم ضروريين بين تعريف أيّ شخص أو شيء وبين سعة أو ضيق إطّلاع المعرّف، إلاّ أنّ المعرَّف يمكن أن يكون أحياناً سهل التعريف كما يمكن أن يكون أحياناً أخرىٰ مستعصياً علىٰ التعريف. إنّ إقدام إنسان غير كامل علىٰ المدح وتعريف مادح غير معصوم لإنسان كامل ومعصوم مثل أمير المؤمنين عليه السلام سوف يكون بلا شكّ محفوفاً بالنقص الكبير.

سوف نستعرض ضمن هذا المختصر جملة من الكلمات القصيرة لمن مدحوا علياً عليه السلام ممن استشمّوا نزراً من شذىٰ الحياة العرفانية العلوية وطرق أسماعهم شيئاً من طنين الصوت العذب للحياة الشهودية العلوية. لكن وقبل كلّ شيء، اعترف هؤلاء بقصورهم وقصور غيرهم وإذعانهم بأنّ لسانهم يعجز عن الوصول إلىٰ إيضاح حقيقة هذه القمم الشاهقة. كما سلّموا بأنّ علي عليه السلام هو عدل وترب الوحي الإلهي وهو القرآن الناطق؛ وعليه، فإنّ ذلك النعت الإلهي الذي وصف به القرآن الكريم

يكون منطبقاً على علي عليه السلام نفسه؛ حيث قال تعالى فيما يخصّ أهمية القرآن الكريم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] كما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام قد قال إثر وفاة سهل بن حنيف الأنصاري أحد أجلّة أصحابه من ذوي الصّدق والوفاء وبعد الرجوع من حرب صفّين مشيراً إلى محبّته الخاصّة وإلى ميزاته التي اختصّ بها دون غيره حيث قال: «لو أحبّني جبلٌ لتهافت»[2]؛ أي أنّ الجبل رغم شدّته، لو أحبّني حقّاً لتلاشى وتصدّع بسبب ذلك.

هذا، وإن كان المعنى المتوسّط لهذا الحديث مع الأخذ بعين الإعتبار لشأن النزول، هو نفسه ما وضّحه الشريف الرضي جامع كتاب نهج البلاغة حيث أشار إلى أنّ محبّة أمير المؤمنين عليه السلام ترافقها محن ومصائب لا حصر لها، وإلى جانب الحديث الآخر الذي قال فيه عليه السلام: «من أحبّنا أهل البيت فليستعدّ للفقر جلباباً»[3]، بحيث تكون محبّة علي عليه السلام سبباً لتحمّل مصائب لا تطاق ولإيجاد الأرضية للتلاشي والإنكسار[4]، إلاّ أنّ المعنى الأعلى لهذا الحديث يبقى دوماً محفوظ ومفاده أنّه ما لم يحصل شرح الصّدر العلوي فلا يمكن أن يكون من الميسور تحمّل مقام الولاية وهضمها لأيّ كان؛ مثلما أنّه ما لم ينشرح الصّدر النبوي فلا يمكن بأيّ حال تحمّل مقام النبوّة والرّسالة وهضم معالي الوحي ومعاني القرآن الكريم. فكما أنّ الجبل الأصمّ وإن كان قائماً على نفسه ومثبّتاً لجانب كبير من الأرض وحافظاً لها من الاضطراب: «ووتّد بالصخور مَيَدان

---

١ . سورة الحشر، الآيه ٢١.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ١١١.

٣ . نهج البلاغة، الحكمة ١١٢.

٤ . المصدر السابق، ذيل الحكمة ١١١.



أرضه»[١]، لكنّه لا يقدر على تحمّل ظرف الوحي؛ مثلما أنّه يفتقد لقدرة تحمّل ظرف الولاية.

تمجيد الشيخ الكليني وصدر المتألّهين لأمير المؤمنين عليه السلام

يمكن القول بأنّ تفطّن الشيخ محمد بن يعقوب الكليني للمعنى اللطيف وللنقطة العميقة الواردة ضمن حديث: «لو أحبّني جبل لتهافت» هي أمر قد أفضى إلى تمجيده الخاص؛ إذ بعد أن نقل خطبة أمير المؤمنين عليه السلام التوحيدية والتي ذكرها عليه السلام حين استنهض جنده وأعدّهم لقتال معاوية في حشر كبير من الناس، ثم قال في ذيل الخطبة: «... بذلك أصِفُ ربي فلا إله إلاّ الله... »[٢]، فقال ما يلي: وهذه الخطبة من مشهورات خطبه عليه السلام... وهي كافية لمن طلب علم التوحيد... فلو اجتمع ألسنة الجنّ والإنس ليس فيها لسان نبيّ على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى به بأبي وأمّي ما قدروا عليه...[٣]

هذا التعبير الذي جاء على لسان الكليني، رغم لطافته وعمقه لم يكن مورد قبول لدى صدر المتألّهين الذي بادر إلى تتميم وتكميل وترميم العيب المستور والنقص المخفي بصورة علنية مشهورة كما يلي:

... فلو اجتمع ألسنة الجنّ والإنس ليس فيها لسان نبيّ كبير مثل نوح وابراهيم وادريس وشيث وداوود وموسى وعيسى والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى به[٤]: أي لا يمكن أن يصدر أي كلام عميق في توحيد الله سبحانه مثلما ورد عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

---

١. المصدر السّابق، الخطبة ١، البند ٣.

٢. أصول الكافي، ج١، باب جوامع التوحيد، ص١٣٤ ـ ١٣٦.

٣. أصول الكافي، ج١، باب جوامع التوحيد، ص١٣٦.

٤. شرح أصول الكافي، صدر المتألّهين، ص٣٤٢.

إنّ هذا التناغم والإنسجام بين كلام الكليني وصدر المتألّهين يكشف أنّ بعض الخطب العلوية العظيمة حول التوحيد تنطبق عليها ما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.[1] هذا، ولا يخفى أنّ من يعرف علي بن أبي طالب عليه السلام وفق هذا الأوج من العروج، فإنّ حياته سوف تكون حياة شهودية وعيشه عرفانياً وبالنتيجة، يكون إيمانه إيماناً بالشهادة.

المدح الكبير لابن سينا لأمير المؤمنين عليه السلام

من الممكن أن يكون وصف علي عليه السلام بأنّه عدل القرآن الكريم وأنّه ترب الوحي الإلهي هو ما دفع حكيماً عظيماً في العالم الإسلامي مثل ابن سينا أن يصف أمير المؤمنين عليه السلام كما يلي: أشرف البشر وأعزّ الأنبياء وخاتم الرّسل صلى الله عليه وآله قد قال لمركز دائرة الحكمة وفلك الحقائق وخزانة العقول، أمير المؤمنين علي عليه السلام ما يلي: «يا عليّ إذا رأيت الناس يتقرّبون إلى خالقهم بأنواع البرّ تقرّب إليه بأنواع العقل تَسْبِقْهم». إنّ هكذا خطاب، لا يمكن نسبته إلى أيّ كان إلاّ إذا كان إنساناً كبيراً له مقام خاصّ بين الناس مثلما للمعقول بين المحسوسات. إنّ معنى الحديث المذكور أعلاه مفاده أنّ مفتاح سبق النّاس تجاه الله في أمور الخير والفوز عليهم في هذا السّباق إنّما هو: إن انشغل النّاس في كثرة العبادة، فانشغل بتحصيل المعقولات تسبقهم لأنّ إدراك علي بن أبي طالب عليه السلام للحقائق يكون بواسطة بصيرة العقل حيث تكون المحسوسات والمعقولات متساوية لديه ولهذا السبب قال عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».[2]

---

١ . سورة الإسراء، الآية ٨٨.

٢ . رسالة المعراج، ص٩٤، مع قليل من التغيير.



إنّ ما يمكن استنباطه من المتن العلوي ومن تحرير الكليني وابن سينا له بقطع النظر عن التنظير السّابق كالتالي:

أوّلاً: علي عليه السلام مقارنة بغيره هو مثل ليلة القدر مقارنة بسائر الليالي.

ثانياً: هو بين جمهور النّاس الحسّيين من قبيل المعقول في مقابل المحسوسات.

ثالثاً: هو بين الحكماء والمتكلّمين من أصحاب النّظر من قبيل المشهود بين المفاهيم والمعقولات.

رابعاً: هو بين الأولياء والعرفاء شاهد وصاحب بصر مثل غائب بين المشهودات؛ إذ إنّ الأولياء أصحاب اللب والقلب والعرفاء الشاهدين يكونون محجوبين عن الغيب الصّادق، لا هم بصيرون ولا هم ممنوعون، ولا هم مأذونون ولا هم محرومون، ولا هو محّرم ولا هو غيب أعلى لأنه من سنخ العين لا الذّهن، وهو أعلى من إدراك العقل النظري؛ من قبيل المجرّد التّام المنزّه عن شوب النظر المادّي ونقص الحسّ البصري ومثل غيب الغيوب هو أقرب من سائر الغيوب وهو مصون من شهود الأولياء المتوسّطين والعارفين الأوسطين. ومثلما أنّ الأفراد العادّيين محرومون من معرفة علي عليه السلام فإنّ الحكماء والمتكلّمين كذلك ممنوعون من معرفته. ومثلما أنّ العقليين من أهل البرهان محجوبون عن إدراك علي عليه السلام، فإنّ أهل الولاية الشّاهدين لا يكون لهم نصيب من شهوده، وما أشار إليه ابن سينا في آخر كلامه أي حديث «لو كشف الغطاء»، يكشف عن قدرته على تحمّل هذه المعارف العالية؛ مثلما أنّ ابن سينا نفسه قد ذكر في هذا المجال مطالب جمّة وجليلة كثيرة كانت مورد إعجاب الفخر الرّازي الذي قال في هذا المجال: لم يأت أحد من قبله ولا من بعده إلى الآن على ذكر مقامات العارفين وعلوم أهل المعرفة بهذا النحو من النضد والنظم البرهاني بمثل ما جاء به ابن سينا.[1]

---

١ . شرح الإشارات و التنبيهات، النمط التاسع، الفصل الأول.

ألوان التمجيد العلوي

إنّ الذين مدحوا علي عليه السلام هم جملة من العلماء الجامعين لأنواع العلم والمحيطين بمختلف أنواع الفكر الذي يشمل دائرتي الطبيعة وما وراء الطبيعة، من قبيل ما ذكر آنفاً. كما نجد إلى جانب ذلك جملة أخرى من المادحين الذين اختصوا بميدان دون آخر مثل الذّين يقصرون النظر على المجال الطبيعي دون غيره؛ من قبيل ما جاء في رسائل أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، المعروف بالجاحظ البصري (ت٢٥٥هـ) والذي قال حول علي بن أبي طالب عليه السلام ما يلي:

كلما وقع الكلام حول السابقة في الإسلام أو سئل عن أفقه شخص في الدّين، وكلما استفسرنا عن أزهد الناس في الدّنيا أو عن إعطاء الماعون وبذل العون في سبيل الله ومساعدة الجيران وأمثال ذلك، فلن تجد أولى من علي بن أبي طالب عليه السلام ولن تجد غيره تجتمع فيه جميع هذه الخصال[١].

إنّ سرّ كون هذه البيان الذي أورده الجاحظ رغم دائرته الواسعة لا يمكنه أن يدلّ بوضوح على المقصود الأصيل، أي إثبات الحياة العرفانية، هو وجود قصور مشهود في هذا الثناء الكبير لا يمكن إحساسه ضمن ثناء الكليني أو ابن سينا،باعتبار أن بيان الجاحظ يخلو من الشهود العلمي والحضور القلبي لعلي عليه السلام ضمن المعارف الغيبية والبعد الغيبي والمجال المعنوي؛ إذ إنّ جميع الكمالات المذكورة في كلامه يمكن اجتماعها مع الحياة الحكيمة والكلامية والتي هي حياة غيبية لا حياة شهادة، وإن كان ذلك لا يتنافى مع الحياة العرفانية.

إلى جانب ذلك، نجد ثناء أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني، رئيس المذهب الحنبلي والذي ذكر أنّ "الخلافة قد ازدانت وتعززت بعلي بن أبي

---

١ . رسائل الجاحظ، ج٤، ص١٢٥.



طالب عليه السلام، لا أنّ الخلافة قد كانت سبب عزّ له"[١]. وإن كان هذا الثناء أيضاً لا يتعارض مع الحياة العرفانية العلوية، إلاّ أنّه يتلاءم أكثر مع الحياة الحكيمة والكلامية فلا يكون لها صلاحية إثبات الحياة الشهودية.

مضافاً إلى ذلك، حين سئل أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري أستاذ سيبويه: لماذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام "إمام الكلّ في الكلّ"، فقد أجاب بقوله: لأنّ الجميع يعود إلى علي بن أبي طالب بينما لا يعود هو إلى أحد منهم[٢].

حين قيل للخليل بن أحمد ماذا تقول في علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ماذا أقول في حقّ من كتم أتباعه فضائله خوفاً وأخفاها أعداؤه حسداً وبغضاً، ومع ذلك فقد ظهرت مناقبه وملأت الآفاق[٣].

إلاّ أنّ جميع هذه التعابير لا تقوى على إثبات الحياة العرفانية لعلي عليه السلام وإن كانت لا تتنافى معها.

لقد أذعن فخر الدّين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني بما سبقت الإشارة إليه سابقاً من مدارية الحقّ لعلي عليه السلام؛ إذ قال في هذا المجال ما يلي:

كلّ من اقتدى بعلي بن أبي طالب عليه السلام في دين الله فقد اهتدى. والدّليل على ذلك، قول الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله حول علي عليه السلام حين قال: «اللهمّ أدِر الحقّ مع علي حيث دار».[٤]

هذا الكلام وإن كان يتحدّث عن محتوى عالي المضامين، إلاّ أنّه ما لم يشر إلى أنحاء الفرق بين أقسام الحقّ وإلى ضرورة البحث عن الحقّ الفعلي ضمن المدار العلوي عليه السلام

---

١. تاريخ دمشق، ج٤٢، ص٤٤٦.

٢. تنقيح المقال، ج١، ص٤٠٣، ش٣٧٩.

٣. المصدر السابق، ش٣٧٦٩؛ الرواشح السماويّة، ص٢٠٣.

٤. تفسير الفخر الرازي، ج١، ص٢١٠.

فلا يمكن أن تجتمع عناصر الحياة العرفانية العلوية. وإن كان يمكن الاستفادة من هذا الكلام للإشارة إلى الحياة الحكيمة والكلامية.

يعود سرّ صعوبة تبيين الحياة العرفانية لعلي عليه السلام إلى كون أغلب رجال العلوم الإلهية أهل نظر لا أهل بصر. إذ إنّ ذوي القلوب الواهة والمتجهة نحو قبلة الشهود قليلون، كما إنّ نزراً قليلاً منهم ممن اختاروا الكلام وبيان شهودهم. ولهذا السبب نجد أنّ أكثر الكلام حول العلوم العلوية تدور حول مدار العلم الحصولي، لا أكثر من ذلك.

هذا، ولا يمكن لما نقله عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ عن النظّام أن يتجاوز هذا المستوى المشار إليه حيث قال: سمعت النظّام يقول: الكلام حول علي بن أبي طالب محنة؛ إذ لو أوفاه القائل حقّه فقد غلى فيه، ولو بخسه حقّه فقد جفاه. كما أنّ مجال التوسّط بين الوفاء والجفاء صراط دقيق وحادّ لا يتيسّر إلاّ للحاذق الذكي[1].

هذا الكلام الذي يشير إلى العجز عن وصف علي ليس صريحاً ولا ظاهراً في الإشارة إلى الحياة الشهودية العلوية؛ مثلما أشار إلى ذلك ابن النديم عن أخبار الواقدي حيث قال: هو إحدى معجزات الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله مثلما كانت العصا معجزة موسى عليه السلام وإحياء الموتى معجزة عيسى عليه السلام.[2]

إذ إنّ هذا النحو من الثناء والمدح لم يكن من أجل تشريح كيفية الحياة العلوية كما لم يتمّ السير في هذا المدار. بخلاف ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعن الإمام الصّادق عليه السلام حول أمير المؤمنين عليه السلام من قبيل "علي أقوى[3] يقيناً من غيره وأشدّ[4]" إذ

---

١ . أمالي الطوسي، ص٥٨٨، ح١٢١٨؛ مناقب ابن شهرآشوب، ج٣، ص٢١٤.

٢ . فهرست ابن النديم، ص١١١.

٣ . كنز الفوائد، ج١، ص٢٦٣.

٤ . المزار الكبير، ص٢٣١، ح٦.



إنّ هذ النحو من التعابير التي سبق ذكرها لها ظهور لفظي في الحياة الشهودية مضافاً إلى صدورها من أفراد ذوي لبّ وقلب وأصحاب بصر وبصيرة.

كلام لابن أبي الحديد حول علي عليه السلام

إنّ المتأمّل في عموم الأدعية الواردة عنه عليه السلام يصل إلى نتيجة مؤدّاها أنّ هذا الوليّ الإلهي المطلق كان يتنفّس هواء الحضور في فضاء الشهود، إذ إنّه عليه السلام كان يناجي ربّه كما يلي حيث يقول:

«سُبّحانَك مَلأتَ كلّ شيء و بايَنْتَ كلّ شيء فأنت الّذي لا يفقدك شيء وأنت الفعّال لما تشاء».[1] لا يمكن إنكار ظهور هذه التعابير في الجمع بين الإطلاق الذاتي للواجب تعالى وبين تنزيهه عن أي شكل من الحلول والإتّحاد والإمتزاج والإختلاط والإلتقاط والتركيب وأمثال ذلك مضافاً إلى ظهوره في شهود صاحب هذا الدّعاء؛ إذ إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام ضمن دعائه يرى أنّ ربّه هو مرجع حنين قلوب المخبتين وأنس عقل العقلاء ومحور عكوف الرهبة العقلية للعاملين وملجأ قلوب المقصّرين. كما يرى أنّ الذات الإلهية هي أمل العارفين ورجاء الرّاجين[2]. ويستنتج من ذلك باللحاظ العلمي أنّ لصاحب هذا الدّعاء رؤية شهودية وله باللحاظ العملي رؤية عينية. كما تنتهي هذه الرؤية الخاصّة وهذا اللحاظ العملي إلى الحياة الشهودية لعلي عليه السلام.

وعلى هذا الأساس، كان يقول بعد فراغه من صلاة الليل: «... أعوذ بك أن أشير بقلبٍ أو لسانٍ أو يدٍ إلى غيرك لا إله إلاّ أنت، واحداً أحداً، فرداً صمداً ونحن لك

---

١ . إثبات الوصيّة، ص١٣٧.

٢ . البحار، ج٨٧، ص٢٤٢، ح٥١.

مسلمون».[١]؛ إذ إنّ هذا النّحو من الدّعاء يبرز مدىٰ الاستغراق الشهودي لصاحبه في شهود الجمال والجلال الإلهي والذي لا يمكنه أبداً قلباً وقالباً وفي الظاهر والباطن أن يتوجّه لغير الله. ولهذا السبب، كان لابن أبي الحديد جملة من التعابير حول أمير المؤمنين عليه السلام نذكر من ضمنها ما يلي:

١ـ لم يكن علي بن أبي طالب عليه السلام أهل دنيا... وإنّما كان رجلاً متألّهاً صاحب حقٍّ.[٢]

الرجل المتألّه غير الرجل الإلهي. إذ إنّ المتوغّل في المعرفة الإلهية هو وحده الذي يكون متألّهاً.

٢ ـ واعلم أنّ التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهية ما عُرِفَت إلاّ من كلام هذا الرجل، وأنّ كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمّن شيئاً من ذلك أصلاً، ولا كانوا يتصوّرونه ولو تصوّروه لذكروه، وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام؛ لا يمكن العثور علىٰ المعارف العالية في توحيد الله وفي العدل الإلهي وفي سائر المطالب الإلهية الشريفة إلاّ ضمن كلام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي عرف بذلك فيما لم يتضمّن كلام الآخرين وكلام أكابر صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله شيئاً من مسائل الأصول الإعتقادية. كما إنّ هؤلاء لم يدر في خلدهم ولم يتصوّروا في أذهانهم أي شيء من هذه الأمور عالية المضامين والمطالب العظيمة (فما بالك بالتصديق بها)؛ إذ لو كانت المبادئ التصوّرية لهذه المعارف العميقة واضحة بالنسبة لهم وكان لهم توفيق إدراك المبادئ التصديقية لهذه المطالب عالية المضامين لكانوا قد أشاروا إلىٰ ذلك، وبما أنّه لا يوجد أثر لهذه المفاهيم ضمن كلام هؤلاء، فإنّه يُعلم أنّ هذه المعارف قد كانت

---

١ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٢٥٥، ح١.

٢ . المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٣.



مجهولة لديهم. فلم يكن سوى علي بن أبي طالب عليه السلام فاتحاً لهذا الميدان وكاشفاً لهذا الشأن ومبتكراً لهذا الفنّ وكان رافداً معرفياً كما إنّ هذه الفضيلة العلمية عندي هي أعظم فضيلة لعلي عليه السلام[1].

إنّ سرّ فضيلة أصل المعرفة هو عدم وجود حدّ محدود للعلم، بخلاف العمل الذي يكون مجاله محدوداً ومغلقاً. إنّ بعض العلوم هي كمال نفسي؛ إذ إنّها لا تقع مقدّمة لأمر آخر ليكون كمالها مقدّمة لغيرها وأداة له؛ من قبيل معرفة الله والعلم بالأسماء الإلهية. ولهذا السبب، تكون هذه العلوم شريفة بالذات. إنّ مقصود ابن أبي الحديد لهذا الحصر هو الحصر الإضافي لا المطلق؛ أي أنّ أحداً من بين غير الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يبيّن هذه المعارف الإلهية، بدليل قوله "من أكابر الصحابة". وعليه، يكون المقصود من التحقيق حول رجال العلم هو خصوص الأمّة، لا ما هو أعمّ من النبي صلى الله عليه وآله ومن الأمّة.

إنّ ما أشار إليه ابن أبي الحديد هو قريب من الكلام العظيم لابن سينا؛ إذ طبق تعبير ابن سينا، يكون أمير المؤمنين عليه السلام قياساً إلى أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مثل المعقول قياساً إلى المحسوس. وطبقاً لتعبير ابن أبي الحديد، فإنّ ما صدّق به أمير المؤمنين وعلّمه لغيره، لم يتصوّره هؤلاء؛ أي مثلما أنّ الحواسّ لا يمكن أبداً أن تدرك المعقول، لا يمكن للصّحابة أصلاً أن يدركوا المعارف العلوية.

يقول ابن أبي الحديد:

٣ ـ وأمّا الحكمة والبحث في الأمور الإلهيّة فلم يكن من فنّ أحدٍ من العرب ولا نُقل في جهاد أكابرهم و أصاغرهم شيء من ذلك أصلاً وهذا فنّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به، وأول من خاض فيه من العرب

---

١ . شرح نهج البلاغه، ابن أبي الحديد، ج٦، ص٣٤٦.

عليّ عليه السلام وهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثةً عنه في فرش كلامه وخُطَبِه ولاتجد في كلام أحدٍ من الصحابة والتابعين كلمةً واحدةً من ذلك ولايتصورونه ولو فُهِمّوه لم يَفْهَموه. أنّى للعرب ذلك؛ إنّ الحكمة والرؤية الكونية الاستدلالية والبحث في المعارف الإلهية فنّ لا يتقنه أيّ كان من العرب، كما لم ينقل لنا التاريخ أي شيء في هذا الميدان عن أيّ عربي صغيراً كان أم كبيراً بل لم نسمع في هذا المجال إلاّ عن مفكّري اليونان والقدماء من أهل الحكمة وأساطين المعرفة الإلهية. فأوّل من تصدّىٰ إلىٰ بحث هذه المعارف عالية المضامين من العرب إنّما هو علي بن أبي طالب عليه السلام. ومن هذا المنطلق نجد أنّ المباحث الدقيقة لتوحيد الله والعدل الإلهي مبثوثة ضمن الخطاب العلوي وضمن الدائرة الواسعة لكلامه وخطبه عليه السلام. وفي المقابل، لا يمكن العثور ضمن كلام أيّ من الصّحابة ولا من التّابعين لأصحاب الرّسول صلى الله عليه وآله (أي النسلين الرّسميين لصدر الإسلام) أيّاً من هذه المعارف عالية المضامين التي لم يصلوا إلىٰ تصوّرها وإدراكها وحتّىٰ لو وجد من يدرّسهم ويفهّمهم هذه المعارف فإنّهم يبقون عاجزين عن فهمها؛ إذ ليس للعرب (باستثناء الوحي الإلهي والإلهام النبوي صلى الله عليه وآله والعلوي عليه السلام) القدرة علىٰ تحمّل هذه المعالي[1].

ما يمكن أن يستفاد من هذا الكلام - مضافاً إلىٰ ما تمّ ذكره من مطالب- هو أنّ علي عليه السلام هو مبتكر المعارف الإلهية من دون جميع الأمّة الإسلامية، كما لا يمكن لأيّ من الصّحابة والتّابعين (المعاصرين أو المتأخّرين) أن يأتي بمثل هذه المطالب. كما لا قدرة لأي منهم أن يتتلمذ ويتعلّم هذه المعارف عالية المضامين. كما أنّ هذا الكلام ينسجم مع كلام ابن سينا؛ إذ إنّ من هو في مرتبة الحسّ لا يكون بعيداً عن ابتكار إدراك المعقول فحسب، بل لا يمكنه كذلك أن يكون تلميذاً للمدرسة العقلية؛ بحيث

١ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٦، ص٣٧٠ ـ ٣٧١.



لو أقدم عاقل على تفهيم فرد حسّي أو موجود حسّي مطلباً عقلياً لما قدر على إفهامه إياه.

يقول ابن أبي الحديد:

٤ ـ يرى جميع المتكلّمين المسلمين الذين وردوا بحر المعقولات أنّهم قد أخذوا علومهم عن علي بن أبي طالب عليه السلام وإليه ينتسبون وأنّه هو أستاذهم ورئيسهم.

ينتمي وينتسب أصحابنا المعتزلة إلى واصل بن عطاء، وواصل هو تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية الذي كان قد تتلمذ على يدي أبيه محمد. ومحمد بن الحنفية هو تلميذ أبيه علي عليه السلام. كما أنّ انتساب الشيعة الذين هم أعمّ من الإمامية والزيدية والكيسانية إلى علي عليه السلام أمر ظاهر.

كما ينتمي الأشاعرة إلى علي عليه السلام من طريق انتسابهم إلى أبي الحسن الأشعري الذي هو تلميذ أبي علي. وأبو علي هذا، هو تلميذ أبي يعقوب الشحّام الذي تتلمذ على يد أبي الهذيل، وأبو الهذيل هو تلميذ أبي عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء. وبالنتيجة، تنتمي فرقة الأشاعرة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام.

كما يعود انتساب الكرّامية إلى علي عليه السلام مثلما أشار إلى ذلك ابن هيصم ضمن كتابه "المقالات" حيث يعتقد أنّ هذا الإنتساب ينتهي إلى علي عليه السلام من طريقين.

كما إنّ إنتماء الخوارج الكلامي إلى علي عليه السلام واضح؛ إذ إنّهم كانوا من أصحابه عليه السلام ثم مرقوا وخرجوا عنه[1].

ويقول ابن أبي الحديد أيضاً:

٥ ـ علي عليه السلام وليّ من أولياء الله يذبّ عن الإسلام أحياناً بالسلاح وباللسان والبيان أحياناً أخرى وبالقلب والفكر أحياناً ثالثة. في الجهاد والحرب يكون عليه السلام

---

١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٦، ص٣٧١ ـ ٣٧٢.



سيد المجاهدين وفي الوعظ هو أبلغ الواعظين وفي الفقه والتفسير هو رئيس الفقهاء والمفسّرين وفي العدل والتوحيد هو إمام أهل العدل والتوحيد. ليس على الله بمستنكر، أن يجمع العالم في واحدٍ.[١]

٦ ـ لقد كانت سيرة علي بن أبي طالب عليه السلام في أموال بيت المال بحيث كان كلّ جمعة يخلي بيت المال على آخرها ثم يصلّي ركعتين ثم يقول: " يشهد عليّ هذا البيت يوم القيامة"[٢]؛ أي أنّه يشهد بعدم اكتناز المال وبالنزاهة من الإختلاس والبراءة من تمييز البعض عن غيرهم من دون حقّ والتبعيض في العطاء من غير عدل وأمثال ذلك.

٧ ـ بما أنّ تاريخ حقبة ما قبل طوفان نوح مجهول ولم يكن مدوّناً، فلا يمكن الحديث عن تلك الحقبة. لكن فيما يخصّ تاريخ ما بعد الطّوفان فإنّه يمكن القول ما يلي: لم يظهر أي شخص في تلك الملل والأقوام من أتراك وفرس وعرب وغيرهم قد كان له مثل شجاعة علي بن أبي طالب عليه السلام حيث كان يأنس بالقتل بالسيف أكثر من أنسه بالحياة[٣].

ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار من تعابير ابن أبي الحديد هو أنّ العناصر المحورية التي تشكّل تعريف أمير المؤمنين لا تخرج في الجانب العملي عن دائرة الزهد والشجاعة والسخاء... وفي الإطار العلمي لا تتجاوز إطار الحكمة والكلام. بناء على ذلك، ليس من السهل إثبات الحياة العرفانية لعلي عليه السلام إنطلاقاً من تعابير هذا الشارح المعتزلي. وإن كان بالإمكان استنباط الحياة الشهودية لأمير المؤمنين انطلاقاً من قسم آخر من كلامه حول علي عليه السلام. نظير كلامه حول خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام بعد تلاوته لقوله

---

١ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٧، ص٢٠٣.

٢ . المصدر السابق، ج٢، ص١٩٩.

٣ . المصدر السابق، ج٧، ص٣٠١.



تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١]، ضمن تفسيره لها[٢]. يقول ابن أبي الحديد:

١ ـ كلّ من يتأمّل هذا الفصل، فإنّه يفهم صدق كلام معاوية حين قال: "والله الذي لا إله إلاّ هو ليس في قريش غير علي عليه السلام من جعل الفصاحة سنّة وأسلوباً".

٢ ـ لو اجتمع جميع فصحاء وبلغاء العرب في مجلس معيّن وقرئت عليهم هذه الخطبة، فالأولى لهم أن يسجدوا أمامها تعظيماً؛ إذ... يقول أدباء الشعر: نحن نعرف موقع سجدة الشعر مثلما تعرفون موقع سجدة آيات القرآن الكريم.

٣ ـ عجبت من رجل يكون خطابه في الحرب خطاب الأسود وفي الوقت نفسه يكون خطابه في مواقع أخرى خطاب الزهّاد والرّهبان الذين كأنّهم لا يقدرون على إراقة قطرة دم واحدة؛ إذ إنّه أحياناً يظهر في صورة بسطام بن قيس الشيباني وعتيبة بن حارث اليربوعي وعامر بن طفيل العامري، وأحياناً أخرى، في صورة سقراط الحبر اليوناني ويوحنّا المعمّداني والمسيح بن مريم.

٤ ـ أقسم بالذي تقسم به أمّة محمّد صلى الله عليه وآله أنّي قرأت هذه الخطبة طيلة الخمسين سنة الماضية أكثر من ألف مرّة، وما قرأتها مرّة إلاّ وأثّرت في قلبي وأعضائي. وما تأمّلت فيها إلاّ وتذكّرت أمواتي وأيقنت أنّهم مصداق كلامه عليه السلام الذي ذكر فيه الأموات. لقد تكلّم الوعّاظ والخطباء والفصحاء في هذا المجال كثيراً وأنا بنفسي قد وقفت على هذا الأمر مراراً وتكراراً إلاّ أنّي لم أجد في كلامهم مثل هذا التأثير الذي وجدته في هذه الخطبة. فهل أنّ هذا الأثر الخاصّ يعود بصفة خاصّة إلى رأيي الخاصّ حول شخص أمير المؤمنين أو إلى النيّة الصّالحة واليقين الثّابت والإخلاص المحض لقائل هذه الخطبة...[٣].

---

١. سورة التكاثر، الآيات ١ ـ ٢.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢١.

٣. شرح ابن أبي الحديد، ج١١، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

خاطرة: حين سألت أستاذنا سماحة السيد محمد حسين الطباطبائي التبريزي المعروف بالعلاّمة الطباطبائي قدس سره: كيف تقيّمون كلام ابن أبي الحديد حين قال: الأولى لفصحاء العرب أن يسجدوا تعظيماً أمام الخطبة المذكورة؟ قال: ليس في هذا الكلام إفراط ولا إغراق؛ إذ إنّ ظهور معارف القرآن وتجلّي كلام الله في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام يفضي إلى هذا النحو من الإحساس وفي الحقيقة، فإنّ سجدة الأدباء من أهل الفصاحة هي سجود للقرآن والذي قد تبلور في صورة هذه الخطبة العلوية.

إنّ ما تجدر الإشارة إليه هو إمكان استظهار الحياة العرفانية العلوية عليه السلام من بعض تعابير شارح نهج البلاغة؛ إذ إنّه عليه السلام يشاهد بالكامل ما يقع من أحداث على أهل البرزخ ويطّلع على جزئيات أوضاعهم؛ مثلما تشهد بذلك قصّة حبّة العرني[١].

مظهر العلم الشهودي الإلهي

في ختام هذه الرّسالة، نشير إلى الحياة العرفانية لعلي عليه السلام من زاوية أخرى وهي كما يلي:

١ ـ بما أنّ الإنسان المعصوم مثل أمير المؤمنين هو مظهر اسم الله الأعظم فإنّه سوف يكون مرآة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢] وخليفة كاملاً مثل المستخلف عنه سوف يكون منادياً للصّلاة التي يكون أثناءها محلاّ لطرح السؤال.

٢ ـ إنّ دعوة علي عليه السلام وضيافته ضمن طلبه للسؤال بصورة واسعة هو عبارة عن مائدة كونية تضمّ مأدبة قيّمة وغذاء أرضياً؛ وعلى هذا الأساس، يقول صاحب هذه المائدة العامّة: «سلوني قبل أن تفقدوني فَلَأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض».[٣] وعليه، لا ينهل البشر فقط من بحر علومه، بل الملائكة أيضاً؛ مثلما كانوا قبل ذلك قد

---

١ . البحار، ج٦، ص٢٦٧.

٢ . سورة الرحمن، الآية ٢٩.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩، البند ٥.



نهلوا من العلوم في مرحلة تعليم الأسماء الإلهية ومرحلة إنبائهم بذلك.

٣ ـ ليس معنىٰ «قبل أنْ تفقدوني» هو أنّه سيأتي يوم لا أكون فيه موجوداً، بل المقصود من هذا الكلام هو أنّه سيأتي عليكم يوم لا تجدونني فيه. وعليه، حين يؤمن السائل بالحياة المعنوية، فإنّه يكون متيسّراً له أن يطرح أسئلته علىٰ روح أمير المؤمنين عليه السلام بعد استشهاده؛ مثلما أنّ الملائكة كذلك يستفيدون دوماً من فيض الخليفة التّام الإلهي.

٤ ـ يكون السؤال أحياناً بلسان المقال فيما يكون أحياناً أخرىٰ بلسان الحال بينما يكون أحياناً ثالثة بلسان الاستعداد وهو أهمّ ألوان السؤال. حين يصبح الإنسان الكامل المعصوم مثل علي ابن أبي طالب عليه السلام وعلىٰ إثر ظهور الاسم الأعظم مظهراً لآية ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ...﴾[1] وحين يصبح هذا المظهر مرآة لقوله تعالىٰ: ﴿وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[2]، فإنّ لكلّ موجود حاجة عند أمير المؤمنين عليه السلام يجيبه عندها طبق درجة ولايته وولاءه له. أمّا من حُرم من الإنتماء إلىٰ فريق متولّيي علي عليه السلام ووقع في هاوية النّصب ومحاربة الأمير فلن ينال أيّ نصيب من الفيض العلوي الشامل ومائدته الحافلة بشتىٰ أصناف المآدب وبالتالي يكون "فاقداً" لذلك الإنسان الكامل وكما جاء في العبارة العظيمة وعالية المضامين لإبنه الجليل الحسين بن علي عليه السلام حين قال: «ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدك»[3]، والتي تصدق بالذات وبالأصالة علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، كما تصدق بالتبع وبالعرض علىٰ خليفته الكامل. فالناصبي الذي أضاع علي عليه السلام لن يجد أيّ شيء في عالم الإمكان.

٥ ـ سوف ينال النّاصبيون المحاربون جزاء مواقفهم السلبية تجاه علي بن أبي

---

١ . سورة الرحمن، الآية ٢٩.

٢ . سورة ابراهيم، الآية ٣٤.

٣ . مفاتيح الجنان، دعاء الحسين يوم عرفة.

طالب عليه السلام كما سوف تتحقّق رغبات علي عليه السلام تجاه هؤلاء بعد العبور عبر مجاري العلم والحكمة والرّحمة؛ مثلما أنّ جميع أفعال الذات الإلهية المقدّسة هي بالذات وبالأصالة كذلك. أي أنّ العلم الشهودي لله سبحانه بتمام صوره الظاهرة والباطنة يؤمّن ظهور أرضية الحكمة الإلهية كما أنّ حكمته تؤمّن إمامة رحمة الله كما أنّ الرّحمة الإلهية تمتلك زعامة الغضب الإلهي. وعلى هذا الأساس، كلما كان هناك أثر للغضب الإلهي، فإنّه يكون موافقاً لهندسة الرّحمة ونظامه العام؛ مثلما أنّ رحمة الله كذلك تكون مسبوقة بالحكمة التي تكون بدورها مسبوقة بالعلم الشهودي الإلهي. فلا يتقابل غضب الله مع الرّحمة العامّة؛ كما لا يمكن مطلقاً أن تقع الرّحمة الإلهية في مقابل حكمته سبحانه؛ نظراً لأنّه لا يمكن لأيّة وسيلة أن تبدّل معيار ومسير الحكمة الإلهية، بحيث لا يفعل الله أمراً من دون حكمة: «يا مَن لا تُبَدِّل حكمتَه الوسائلُ».[١]

بناء على ذلك، دوماً تكون رحمة الله مأمومة لحكمته، لا إنّها متقابلة معها؛ مثلما أنّ حكمة الله تتشكّل تحت زعامة علمه تعالى من دون أن تكون أبداً في مقابل العلم الإلهي، كما أنّ زعامة جميع حلقات قافلة الأسماء الإلهية في هذا المقطع تقع بعهدة علم الله والمقصود من علم الله هو الشهود الإلهي الكامل، وليس العلم المفهومي والعلم الحصولي والذي يعتبر في ساحة الواجب تعالى من ضمن الأوصاف السلبية. إنّ الخليفة التّام الإلهي أي علي بن أبي طالب عليه السلام هو مظهر العلم الشهودي الإلهي والذي يسوس حكمته أمير المؤمنين عليه السلام. كما أنّ الحكمة الناشئة من العلم الشهودي لعلي عليه السلام لها الزعامة على الرّحمة العامّة. كما أنّ الرّحمة العامّة العلوية تقود غضبه كما أنّ جميع أفعاله المتداولة عليه السلام تسير حسب المجاري المذكورة أعلاه وأيضاً على أساس: «رُدُّوا الحَجر مِن حَيْثُ جاء فإنّ الشرَّ لا يَدْفَعُه إلّا الشَرُّ»[٢] بحيث يطهّر الأرض من

١ . الصحيفة السجّاديّة، الدعاء ١٣.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ٣١٤.



لوث الشرك وفرث الإلحاد كما يروّض غضبه بواسطة الرّحمة من دون أن يتمكّن لهيب الغضب من التغلّب على نسيم الرّحمة.

٦ ـ حسب ما سبقت الإشارة إليه، فإنّ السيرة العلوية هي عبارة عن المظهر التّام والمرآة الكاملة بالنسبة لمعبوده وخالقه، أي أنّ الذات الإلهية تستوجب أن يقال في حقّها ما يلي: علي عليه السلام هوية قد «سَبَقَتْ مَعْرِفتُه الشهوديّةُ حِكمتَه وقادَتْ حكمتُهُ رحمَته وأمَّتْ رحمتُه غَضَبه».

بناء على ذلك، ما ذُكر في لحن الآداب العرفانية والتي تمّت الإشارة إلى بعض منها، يعود إلى ساق المقام العلوي، لا إلى صدره. وهو ناظر إلى ذيل منزلة أمير المؤمنين عليه السلام لا إلى رأسه؛ باعتبار أنّ جميع الشؤون العلوية تقع تحت طائلة المعرفة الشهودية والحكمة العرفانية لعلي عليه السلام. فإنّما بإمامة المعرفة الشهودية والحكمة المتفرّعة عنها وحدها يمكن أن تكون في إطار الرّحمة أو الغضب، وضمن الجذب أو الدّفع، وأخيراً ضمن التولّي أو التبرّي.

ومن هذا المنطلق، من جهة انطبعت على الوجه الرحيم ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[1] صورة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾[2] ومن جهة ثانية، انطبع على هياجه في الهوجاء وعلى غضب ذي الفقار والسيف البتّار في ساحة الوغى طابع ﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[3]. إنّ هذا النموذج من الإنسان الكامل هو الذي أنشد نغمة ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]. إنّ معرفة معصوم كامل كهذا ليست فقط من قبيل دخول الجمل سمّ

١ . سورة الإنسان، الآية ٨.

٢ . سورة الإنسان، الآية ٩.

٣ . سورة التوبة، الآية ٤٠.

٤ . سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

الخياط بالنسبة لغير المحبّين فحسب بل هي كذلك بالنسبة إلى بعض المحبّين أيضاً. لا يمكن أبداً الإحاطة بلباب إمكان تحرير سيرة إنسان معصوم لم يترك البذل للمحتاجين يوماً ولم يصدر منه غضب على عبد، بل ما فتئ في تمام عمره يبذل كلّ شيء في سبيل الله ويحرّر العبيد قربة إلى الله وكان مثالاً للإيثار الخالص لوجه الله والذي يعادل كلام حاتم الطائي في طول حياته.

كما أنّه يمثّل أبرز مثال للقتال الشهودي في سبيل المحبوب والذي يعادل عبادة جميع الإنس والجنّ:

«لَضَرْبَةُ عليٍّ خير من عبادةَ الثَقَلين»[1]. فكلّ من لم يكن ندياً لهكذا إمام، سوف لن يكون من نصيبه سوى الندم. وكلّ من لم ينضمّ إلى مقام هذا الإمام الملكوتي فإنّه سوف يقع حتماً فريسة للقافلة الملكية الأموية. وكلّ من لم ينزل معزّزاً مكرّماً على مدينة الولاية العلوية، فإنّه سوف يسقط في فخّ الذلّ المرواني وكلّ من... .

دعاء

إلهي! أنت شاهد عليّ، إنّ كاتب هذه السطور، عبد الله جوادي الطبري الآملي ابن أبي الحسن وزهرا يسلّم بكلّ ما جاء به الأنبياء عليهم السلام وبجميع ما جاء به خاتمهم صلى الله عليه وآله وبجميع ما جاء في القرآن الكريم وما قالت به العترة الطاهرة عليهم السلام. وهو بصدد تبيين وتعليل وحماية وتنفيذ تلك الأوامر. كما أنّ جميع هذه المزايا تعود إلى لطفك سبحانك! إنّ ولاية أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام هي روح روحي. آمل أن أعيش لها وأموت عليها وأن أحشر معها. آمين. والحمد لله ربّ العالمين.

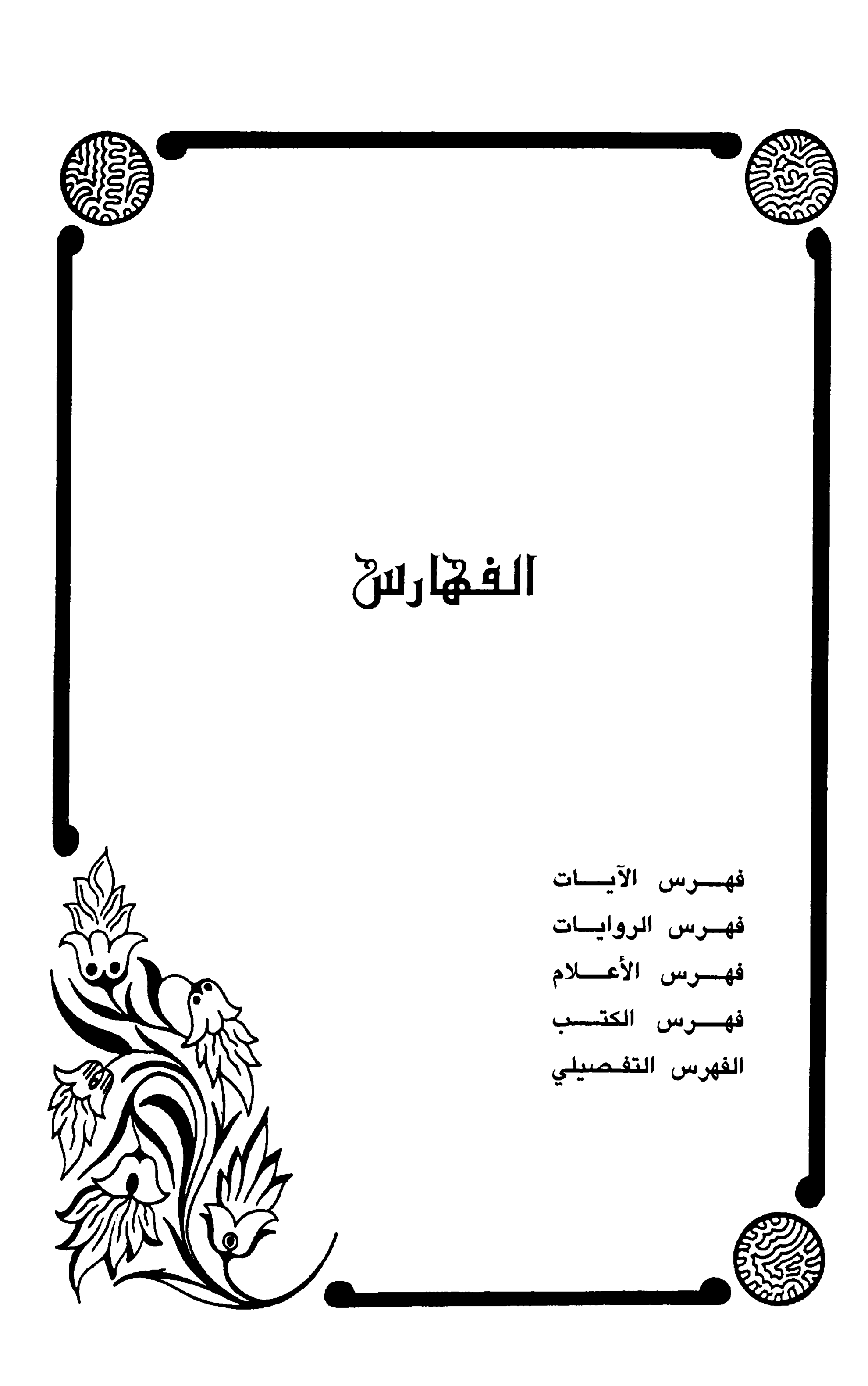
عبدالله جوادي آملي

الثالث من صفر الخير ١٤٢٢

* * *

---

١. البحار، ج٣٩، ص ٢.



الفهارس

فهرس الآيات



فهرس الرّوايات



الحديث	الصفحة

● **فاطمة الزهراء عليها السلام**

فهرس الأعلام

فهرس الكتب

● ع - غ - ف - ك

● م - ن

الفهرس التفصيلي









